سعيد سالم

كفُّ مريم

رواية





الكتاب : كـــف مـــريـم
روايـــة

الكاتب : ســعيد ســالم

الناشر :



اتحاد الكتاب
١١ أ ش حسن صبرى - الزمالك - القاهرة
ت : ٣٤١٦٥٥٠ - ٣٤١٩٨٦٨

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٢٠٧٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-295-3

الغـلاف : محمـود الهندى
جرافيـك : ناهـد عبد الفـتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر
بمركز الحضارة العربية
تنفيـذ : سـيد حـرزاوى
تصحيـح : زكـريـا منتصر

كفُّ مريم

روايـــــة

الحائزة على جائزة اتحاد كتاب مصر لعام ٢٠٠١

مقدمة

آه .. كم أرهقني وأسعدني وآلمني هذان العاشقان: حليم ومريم، حتى فرغت لتوي من قصتهما الرهيبة التي بدأت أحداثها الوردية المعطرة صباح يوم مشرق من أيام عام ١٩٩٢ .. وإني لأعجب غاية العجب من جنون هذا السعيد الحالم الذي استطاع أن ينتهي من تسجيل روايتهما في عشرين يومًا لم تزد.

كيوبيد ١٩٩٤

(١)

وفيق جرجس

١٩٦٢

هذه الليلة بعمرى كله. تحقق حلمى وأملى ففزت بمريم من بين المتقاتلين عليها. لم أكن أنتظر أن تختارنى دون من يصغرنى سناً أو من يفوقنى ثراء. لابد أن لها معياراً خفياً تقيس به صلاحية من تختاره ليشاركها الحياة. أية معجزة أرضية تلك التى تجعلنى أتصور أننى سأقضى الليلة معها على فراش واحد، وأننى سوف أحتوى هذا الجمال المخيف بين ذراعىّ وأعتصر رحيقه وأرتشف من عسله ملكاً خالصاً لى وحدى حتى الموت.

إن ما يثيرنى لحد الفزع أحياناً أنها لم تبادلنى سوى كلمات قليلة خلال مرات تعارفنا ولقاءاتنا المعدودة قبل الزفاف، فغالباً ما كانت تكتفى بالتعبير بعينيها وإيماءات رأسها عما تريد. لقد شعرت يوماً أننى أمام أشعة عينيها النفاذة مجرد خلية مجهرية تخضع لفحص ميكروسكوبى ثاقب.. كل هذا فى كفة وقبولها لى دوناً عن غيرى فى كفة أخرى.

ما أروعها من امرأة حبانى بها الرب بعد صبر عظيم. إننى لم أفرح منذ طفولتى بشىء مثل فرحتى اليوم بمريم. أحبها. أعشقها. أشتهيها بشدة. أحترمها وأثق بها وأتيه عجباً بشخصيتها التى بهرتنى منذ التقيت بها لأول مرة فى الكنيسة. إنى أكاد أقدسها.

ها هى الآن بين يدى. مريم الجميلة الصامتة الخجول.. تطرق حياء

ودلالاً فتكاد أنوثتها تفقدنى الصواب وتسلبنى الاتزان، وأنا الذى لم أقترف الخطيئة مع امرأة ولو مرة واحدة رغم تجاوزى الثلاثين بعامين.. وكيف أزنى وأبى القسيس لايزال يتعهدنى بالوعظ منذ كنت صبياً وحتى اليوم «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزنِ وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم».

هكذا تحالفت مع الحرمان واستمرأته رغم قسوته وشدة بطشه.. ولأن الإنجيل وممارسة الرياضة وكثرة الصوم والصلاة لم يستطيعوا قهره فى جسدى واستئصاله من مشاعرى وأعصابى وطاقتى الشابة المشتعلة، فإنه لم يكن أمامى إلا أن أستسلم للحرمان وأتلذذ بعذابه وسطوته انتظاراً لليوم الموعود.

وها هو اليوم يجىء بمعجزة وقد نفد صبرى عن آخره، واستحال استمراء الحرمان والتلذذ القهرى بعذابه إلى قوة عمياء جامحة، اندفعت فى ليلة العمر الهادئة تبطش به وتلتهمه وتفتك دون رحمة أو رويّة.. وإذا بمريم تصرخ فزعة وتتملص منى وفى عينيها رعب لم أشهده من قبل فى حدقتى مخلوق!

لم أشعر بنفسى وقد ازداد توحشى ونشبت أنيابى ومخالبى فيما تمكنت منه من جسدها المرمرى وأنا أخور كذئب مسعور تسيل من فمه دماء فريسته الجريحة.

أطلقت صرخة مدوية واندفعت إلى باب الغرفة تفتحه منطلقة فى أرجاء الفندق الكبير.. حافية القدمين فى ثوب الزفاف وقد تمزق معظمه وتناثرت عليه بقع لست أدرى من دمها أم من دمى.. تجرى فى

الطرقات وأجرى من خلفها دون وعى بالزمان أو المكان وما يشغلهما من جماد وبشر.. لم أدرك معنى الذهول الذى كان مرتسماً على وجوه النزلاء - فقد كنت فاقد الإدراك - حتى وصلت إلى باب الفندق المؤدى إلى الطريق العام.

كلما تمكنت من ثوبها وكدت أمسك بها نزعت نفسها منى بقوة خرافية ليزداد تمزق الثوب ويتعرى لحمها الأبيض الشهى وقد تلون بلون الدم فيزداد صرعى ويتصاعد جنونى وكأننى فى كابوس مثير.

لم يكن فى اندفاعى من خلفها شيء من الإحساس بالفضيحة أو العار أمام النزلاء الذين شهدوا حفل زفافنا منذ ساعتين.. كما لم يكن فى هذا الاندفاع مجرد رغبة فى كبح جماحها والسيطرة عليها لإعادتها إلى غرفتنا بالفندق، وإنما كنت أريدها فى التو واللحظة كما لو كان ملاك الموت سيخطفها منى بعد دقيقة، ولو تمكنت منها لما ترددت لحظة واحدة ولو على قارعة الطريق. هذه نتيجة تربيتك المباركة يا أبى المبارك.

فى عرض الشارع كدت أتمكن من الإمساك بها وقد ارتبك مرور العربات التى توقف معظمها فجأة فى جو عاصف مطير تحاشياً للاصطدام بها أو بى أو ببعضها البعض لزلاقة الطريق.. لكنها تمكنت من الهرب مندفعة إلى رصيف البحر قافزة من فوقه بسرعة فائقة.. وتفرج الخلق جميعاً على عروس جميلة تندفع إلى شاطئ البحر الثائر ليلة زفافها يطاردها وحش بشرى مجنون كاسر.. وقبل أن تلقى بنفسها بين الأمواج المتلاطمة سقطت على الرمال منهارة فاقدة الوعى.. وحملتها عائداً بها إلى الفندق غير واعٍ بما يحيط بى من موجودات كونية.

استدعيت طبيب الفندق وطلبت أن يحقنها بمهدئ.. ارتجف جسدها عدة مرات متقطعة ثم غابت بعد ذلك فى نوم عميق.. وكنت

قد فقدت السيطرة على أنفاسى المتهدجة وروحى الحائرة، أما جسدى فلم أقو على إطفاء نيرانه الملتهبة رغم كل ما حدث.

ما أن خرج الطبيب حتى اندفعت فى قلب الحريق لا لأطفئه بل لأحترق فيه وأتلظى فى نعيمه وأكتوى بجمره حتى الموت.. أدخل المحرقة وأخرج منها أكثر التهاباً فأعود إليها من جديد متعبداً فى محرابها، مصهوراً متفانياً فى عشقها حتى الرمق الأخير.

ولما أفاقت مريم لم تسارع بستر جسدها فى فزع واحتقار كما توقعت أو كما كان يجب أن يكون، وإنما رمقتنى بنظرة مبهمة لم أفهم مغزاها حتى الآن، ثم شرعت فى ارتداء ملابسها على مهل ولم تنطق حرفاً واحداً.

* * *

عقب تلك الليلة وفيما يزيد على عام كامل عاشت مريم حالة من الاستسلام القدرى العجيب لواقعها دون إبداء أى تذمر. كان إحساسى بالذنب تجاهها أصيلاً طاغياً، تجذَر فى أعماقى رغم أنها لم تفاتحنى مرة واحدة فيما حدث. بذلت لها كل ما بوسعى من عطاء، وكنت على اعتقاد راسخ بأنها تستحق ذلك..

١٩٦٤

لم تمض أشهر قليلة - بعد أن أنجبت لى «بشارة» - حتى هبت علىّ فى عنف رياح صمت ثانية مازلت أجهل مصدرها حتى الآن. كانت تصاب بنوبات تشنجية خفيفة تعقبها حالة من الإغماء المؤقت كلما دعينا إلى حفل زفاف لحظة انصراف العروس مع زوجها.. لكنها كانت تلح فى كل مناسبة على زيارة العروس خلال شهر العسل وتذهب وحدها محملة بأفخم الهدايا والعطور والملابس للزوجين.

وأحياناً أجد جسدها يتحول إلى قطعة من الثلج ويزداد صمتها وانكماشها على نفسها - متحفزة كنمرة - ويكثر زهدها فى الطعام، ثم

تعود جمرة مشتعلة من جديد، لكنها تحرمنى من الاستمتاع بنارها المقدسة. استمرت على هذه الحال قرابة أسابيع ثلاثة، كانت قد وصلت فى نهايتها إلى ذروة الغضب العصبية لأتفه الأسباب حتى خشيت عليها من انهيار عصبى محتمل.

اصطحبتها إلى أكثر من عاصمة أوربية وأغدقت عليها من الهدايا والملابس والمجوهرات ما تشتهيه ملكة عسى أن تعود إلى حالتها الطبيعية التى ارتضتها لنفسها وارتضيتها أنا لى ولها كحالة ساكنة مستقرة، راضية من عطاء القدر بحياة تكاد تخلو من الحماس والقلق والانزعاج.. لكنها ظلت معى على برودتها وصمتها وزهدها!

١٩٩٢

عموماً فقد شكرت الرب على مرور الحياة ورضيت بما تمنحه لى مريم من قليل وما أمنحه لها من كثير، وكان من الضرورى أن أدرب النفس على قتل شعورى بالمرارة من تلك الحياة الشبيهة بالموت، والتى أمضت مريم ما يقرب من ثلثها بالولايات المتحدة الأمريكية على فترات متقاربة أحياناً ومتباعدة أحياناً أخرى، كمبعوثة مرة، ومعارة مرة، ولحسابها الخاص مرة.. ولم يخطر ببالى يوماً أن أمنعها من السفر، كما لم يخطر ببالها هى الأخرى أن تفكر فى دعوتى لمصاحبتها ولو مرة واحدة.

* * *

ولكن.... يبدو أن هناك عاصفة ثالثة من الصمت سوف تجتاز حياتى هذه الأيام، وبعد مرور ثلاثين عاماً على زواجنا.. وإن صحت نبوءتى فالله وحده هو الذى يعلم متى وكيف ستهدأ تلك العاصفة أو تنتهى إلى ما تنتهى إليه.. أما بواعثها ودوافعها فسوف تظل فى صدر مريم حتى يوم البعث.

نظرات عينيها الشاردة الغامضة لا تختلف عن تلك النظرات التى عهدتها فى العاصفتين السابقتين حين يصحبها زهد فى الطعام أشبه بزهد النساك، فقليل من الماء وكسرة من الخبز وقطعة من الجبن قد تكفيها زاداً طول النهار.

إذن فهناك ما تخفيه عنى من أمر جلل طرأ فجأة على حياتها المتحوصلة فى داخلها منذ تزوجتها - وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها - وكالمعتاد سوف تضيفه إلى مخزون أسرارها المجهولة المتراكمة فى أغوار صدرها عبر السنين.

إن يقينى مطلق أنها لا تفكر لحظة فى خيانتى أو الإضرار باسمى وشرفى، لكنها لا تستطيع أن تتنفس إلا إذا التزمت الإخفاء والحرص والتكتم والصمت والحذر، لست أدرى لماذا؟.. إنه طبعها الذى عهدته فيها منذ هبت العاصفة الأولى فى ليلة العمر الكالحة ●

(٢)

سهل عامر

١٩٦٢

لم يكن من العدل أن أصدر حكماً جازماً على مريم بالكبرياء والعنجهية المستترة مثلما حكم عليها معظم الزملاء وبصفة خاصة سمير زخارى الذى كان ينفر منها بشدة، رغم أنها لم تكن زميلة مباشرة له، ربما كانت مسكينة تعانى من الانطوائية والتقوقع حول ذاتها، وتعجز عن التفاعل مع الواقع الخارجى، وإن نجحت فى التعامل السطحى معه بشكل أو بآخر. كان جمالها ذا طابع فريد متميز يضفى على شخصها هالة من الحزن الشجى تشع من عينيها الساهمتين ووجنتيها الحمراوين وفمها الذى تجمع شفتاه بين الاكتناز والرقة وبين حمرة الورد وطزاجة الفاكهة، فتبدو كقديسة من عالم الملكوت تجذب من يقترب من فلكها المكهرب بسحر غامض دونه شتى المخاوف والمحاذير.

لهذا لم أصدق إطلاقاً ما أشاعته إحدى الزميلات من أن الدكتور عبدالجليل صيام رئيس قسم الآثار يكثر من استدعائها إلى مكتبه، وأنها تظل جالسة عنده بالساعات أحيانا، ضارباً عرض الحائط بمسئولياته الجسيمة. ولقد صدق البعض الشائعة حين كانت مريم تنفرد عن بقية زملاء القسم بتقدير الامتياز فى مادة الآثار بصفة دائمة. أما أنا فلم أصدق عن مريم أية شائعة، لست أدرى لماذا، حتى بعد أن أقسم لى زميل آخر لها أنه رآها بعينيه قرب نهاية العام الدراسى الأخير تدخل مسكن الدكتور الصيفى الذى يمضى فيه شهراً من كل عام مختلياً بأسطوانات الموسيقى الكلاسيك وزجاجات الويسكى بعيداً عن

الكتب والأبحاث.

كنت أتألم لحالها وأقول إن للجمال الفادح ضريبة فادحة، وإن غيرة النساء من بعضهن كفيلة بإشعال جحيم من النيران بين قبيلة كاملة من الرجال.. حتى فوجئت بها يوماً تطرق بابى فى جرأة صامتة يستحيل تفسيرها للوهلة الأولى، فإن العام الدراسى ٦١ / ٦٢ هو العام الأخير لنا فى الجامعة وكلنا مشغول بمستقبله غارق فى مذكراته وأحلامه وتطلعاته للمستقبل.

-اسمع يا سهل. أنا لا أعرف إلا أقصر الطرق.

وكأننى بصدد تاجرة تعقد معى صفقة عاجلة لبيع لحم بشرى، أفاجأ بها تواصل الحديث قائلة:

-يخيل إلىَ أنى أحبك.

أهو كبر زائد متضخم بحاجة إلى من يذله ويقهره حتى تثوب إلى رشدها، أم أنه مرض نفسى يمكن أن تشفى منه بالعلاج؟!.. أم أنها جرأة تصل إلى درجة الشذوذ عن بنات قومها من فتيات الجامعة اللاتى تتمتع أكثرهن فجوراً بحد أدنى من الحياء يمنعها من ذلك؟

-أنا فى الحقيقة لست أجد ما أقوله.. المسألة..

ارتبكت وتلعثمت فقاطعتنى بنبرة استفزازية:

-المسألة هى اختلاف الديانة -أليس كذلك؟

أى اختلاف هذا وأى تطابق أيتها المجنونة المثيرة لأعتى شياطين الرغبة!.. أجئت متفضلة علىَ بمنحة لست أدركها لأنك تتخيلين أنك تحبيننى، ثم تحسمين كل مشاكل الكون فى خيالك المتورم بحيث لا يبقى إلا اختلاف الأديان؟!

-لم أقصد ذلك، ورغم اعتزازى بإسلامى فالحب لا دين له ولا وطن، إنما نحن مازلنا طلبة والطريق أمامنا حافل بالمجاهيل.. كما أن..

لم تدعنى أواصل الكلام، كنت أود أن أنبهها إلى أنها إنسانة

محظوظة، فمن هم مثلى من المغامرين لا يتركون فرصة كهذه دون التهامها حتى الرمق الأخير.. البيت خال إلا منّى وهو بيتى.. ومساحة حريتى واسعة للغاية، فأبى تاجر ميسور الحال يغدق علىّ المال الوفير ولا يزورنى إلا بعد أن يخطرنى، ونجاحى الدائم يعفيه من أن يحمل همى، ولو أغلقت الباب علينا بالمفتاح لكانت النهاية المحتومة!

أردت أن أوضح لها خطورة ما تفعل وتقول ثم أصرفها بمعروف، لكنها قاطعتنى بعصبية مكبوتة:

ـ لا تكمل.. أنت أعجز من أن تحب من هى مثلى!

لم تسعفنى ثمرة ما قرأت من كتب عن شخصية المرأة كى أفهم وأفسر وأحلل ما حدث من مريم. رغم ذلك فقد تعاملت معها باحترام كنت على ثقة من أنها تستحقه.

لقد استقر فى ضميرى فى تلك اللحظات اللامعقولة أن مريم ليست فى كامل وعيها لسبب أو لآخر، وأن هناك دوافع خفية غامضة أقوى بكثير من قدراتها الذهنية والوجدانية هى التى وضعتها فى هذا الموضع العبثى.. وكان أغلب ظنى أنها سوف تندم ندماً شديداً حين تفيق إلى نفسها وتستعيد تصور ما حدث.

وكأننا كنا على اتفاق شفاهى وتحريرى موثق بقسم كل منا بدينه ألا يذيع ذلك السر.. فما حاول أحدنا أن يشير للآخر ولو بنظرة موحية إلى ما حدث فى تلك الليلة.. التقينا فى أول محاضرة وكان جلياً فى نظراتها عرفانها بالجميل، لكنها لم تقل شيئاً.

١٩٦٤

أما مفاجأتها الثانية فقد نزلت على رأسى كالصاعقة. كان قد مضى على تخرجنا ما يزيد عن عام حيث استمرت إقامتى فى نفس المنزل بعد استلامى العمل.

فتحت الباب لأجدها واقفة أمامى كتمثال لربة الجمال. ابتلعت

دهشتي وقد تسمرت في مكاني أبادلها الصمت بصمت أقوى. لم تتكلم. دعوتها للدخول. جلست في انكسار شديد وقد تبدد كبرياؤها القديم فلم يعد له أثر.

لم تلبث أن انفجرت في بكاء يحرق القلب. تألمت بشدة لحالها وقد تضاعفت دهشتي وتأكد حسن ظني القديم بأنها ضعيفة تعسة بحاجة إلى فيض إنساني من الرحمة والتعاطف والمودة.

ربت على كتفها مغالباً هواجسي الشيطانية التي اشتعلت في جسدي لحظة تساقط دموعها الغزيرة على وجنتيها الباهتتين. جلست بجوارها أسألها في حنان:

- ما بك يا مريم؟

كنت أعرف أنها عينت كمعيدة بالكلية وأنها تزوجت بعد تخرجنا بعدة أسابيع، وأنها مرشحة للسفر في بعثة إلى أمريكا، لكني لم أكن أعرف أنها قد أصبحت أماً لطفل لا يتجاوز عمره أشهراً قليلة.

- لم أعد أستطيع الصبر.

- على أي شيء؟

- على نفسي!

* * *

فكرت بعمق قبل أن أقول لها، وقد تخلصت من ذهولي الشديد لوقع المفاجأة عليّ:

- أنا أعيد لك كرامتك المفقودة ولحظات السعادة المشتهاة!

- كيف؟

- الطب كفيل بالقسط الأول، وأنا كفيل بالباقي حال موافقتك

* * *

عادت مريم عذراء من جديد وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي. ظللت طوال الليل أجتر وقائع اليوم في ذهول.. خاصة ما حدث في

عيادة الطبيب الصديق.

يحيرني ذلك الكيان الإنساني الهزيل المخيف المسمى بالمرأة. إنها لم تغفر لوفيق اغتصابه المتكرر لها وهي في غيبوبة الخدر، نسيت الفضيحة العارمة بكل أبعادها ولم تذكر إلا تلك الواقعة إذ استعصت على نسيانها تماماً.

ولست أرى غرابة في ذلك فهو فعل يكاد يستعصى على الغفران، أما الغريب حقاً فكان مواجهتها للمأساة بالصمت التام لأكثر من عام، ظلت تبكى فيه عذريتها التى سرقت منها دون أن تدرى، وهى التى ظلت تصونها وترعاها انتظاراً لليوم الموعود.. هذا ما قالته لى بنبرات جامدة كالموت.

قالت إنها لم تخض تجربة التحول من فتاة إلى سيدة رغم أنها أنجبت «بشارة».. لم تعش تلك اللحظات القدسية الحافلة بالرهبة والرغبة والنشوة، والتى تعيش كل فتاة على الحلم بها حتى تتحقق. لهذا كانت تزور صديقاتها المتزوجات حديثاً فتسألهن بحرقة عن تفاصيل الليلة الأولى: ماذا حدث، وكيف كان شعورك، وهل كان رقيقاً حنوناً معك أم كان فظاً غليظاً؟!

.. توقف بها الزمن عند تلك اللحظة فانفصل الماضى عن الحاضر وأصبحت على وشك الجنون، لاستحالة قدرتها على استرداد ذلك الزمن المفقود.. أغلى أيام العمر.

- وهل أجبرك أحد على الزواج منه؟

- بل أنا الذى اخترته بكامل إرادتى وطبقاً لمواصفاتى.

- فما السبب إذن فى نفورك المفاجئ؟

- لن تصدقنى مهما أقسمت بأنى رأيت الشيطان متجسداً فى وجهه وصوته وجسده ليلة الزفاف.. حينها أدركت بعد فوات الأوان أننى ارتكبت غلطة العمر وطمعت فى تصحيحها على الفور.

- كيف وأنت تعلمين باستحالة الطلاق ؟

- لعلمي بأني طمعت في المستحيل فقد اندفعت إلى البحر لأنهي حياتي بيدي .

لم أكن أتصور ألا يختلف مستوى تفكير معيدة جامعية عن تفكير قروية ساذجة فيما يتعلق بذلك الغشاء الجلدي الرقيق ، وما يمثله عندهن من معان أعمق وأعقد بكثير مما أعرفه من أبعاد تاريخية ونفسانية وجسمانية وعاطفية فضلاً عن فكرة الشرف .

كانت تزأر بالحديث في وحشية بالغة ودون توقف . . كائن آخر غير مريم التي عرفتها وعرفها الجميع . . وكلما أعادت ذكر الواقعة في سياق الحديث بدا التقزز الشديد على ملامحها ، بل إنها تقيأت أكثر من مرة وهي تصف لحظة اكتشافها لما حدث ، ومواجهتها لوفيق بعينيها دون كلمات وهو يلهث أمامها في تخاذل سعيد خائب . وجاءت في الموعد المحدد فاستقبلتها مهللاً :

- أهلاً . . آنسة مريم .

تفجرت ينابيع السعادة من عينيها لدى سماعها لقولي فألقت بنفسها على صدري . رحت أربت في حنان على ظهرها وأتحسس شعرها الكستنائي برقة دهشت لها من نفسي . أمسكت بيديها أقبل أظافرها وأطراف أناملها ورقبتها وباطن كفيها وظهرهما في طمأنينة صامتة ، ورأيتها تذوب بين يدي كقطرة ندى ، ثم تستحيل إلى نسمة ربيع هائمة تفوح برائحة الزهر ، وكانت عيناها تنطقان بآيات السعادة والذهول في آن واحد ، وكأنها لم تكن تتصور إن في الحياة متعة تعدلها تلك المتعة ونشوة كهذه التي تتفجر من أعماق القلب فيرتعش لها الجسد وينتفض وقد بعثت فيه الحياة لأول مرة .

عاشت معي مريم اللحظات التي تمنتها من عمرها واستردت مفقوداتها الغالية من الحياة ، وكان امتنانها فوق قدرتها على التحمل

حتى أنها انحنت لتقبل قدمى قبل أن تتركنى أسير سحرها الطاغى على موعد بلقاء فى اليوم التالى.

* * *

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على علاقتنا استقبلتها يوماً كعادتى مردداً العبارة التى تسعدها:

- أهلاً مدام مريم.

انطلقت الضحكات من أعماقها فى تحرر مطلق وهى تقبلنى. كان وجهها زهرة حمراء تتفتح عشقاً وحناناً. جاءت بحقيبة أفرغت محتوياتها من ملابس منزلية. ارتدت بعضاً منها واستلقت فى طمأنينة على مقعد وثير.. ثم انهارت باكية.. تعجبت لتحولها المفاجئ فسألتها:

- ما الذى حدث؟

- إنى حزينة لما يحدث.

- لكنك تحبيننى.

- لهذا أنا حزينة.

- كيف؟

- أولاً لأنك لا تحبنى وإنما ترضينى وتستمتع بى، وثانياً لأن ما نفعله محرم.

أطرقت برأسى عاجزاً عن النطق بكلمة تليق بالموقف، حين فاجأتنى بقولها:

- إنى أكرهك كما لم أكره إنساناً من قبل.

منذ أن عرفت هذه المرأة وأنا رهين مفاجآتها وتقلباتها الجنونية العارمة التى تختفى تحت وجه ملائكى حزين وتستتر وراء عينين شاردتين ولسان لا يفصح إلا عن القليل. صرخت فيها قائلاً:

- ما هو المطلوب منى على وجه التحديد؟

قالت فى استسلام قدرى عجيب.. وكانت نبراتها كسيرة:

- لا شيء!

ولم تلبث أن ارتدت ملابسها وانصرفت ولم أرها مرة أخرى ●

(٢)
جولييت مقار

١٩٦٢

لست أدرى هل أحمل نفسى وزر ما حدث أم ألقى به على القدر والمكتوب؟.. إن شعوراً بالذنب قد تملكنى منذ تلك الليلة الكابوسية السوداء، والتى أشكر ربى على أنى لم أشهد وقائعها بعينى، إذ حدث ذلك كله عقب مغادرتى الفندق مع المدعوين مباشرة.

لم أكن أصدق أذنى وأنا أستمع لمريم تقسم لى بكل المقدسات:

- صدقينى يا أمى لقد كان أسود الوجه محمر العينين أشعث الشعر طويل الأنياب والحوافر، وكانت نظراته الجائعة المفترسة تزلزل كيانى وتصيبنى بالرعب والاشمئزاز والتبول اللاإرادى.

- أنا لا أستطيع أن أصدق أنك تتكلمين عن الدكتور وفيق هذا الرجل المتدين المثالى.

- بل إنه هو كما رأيته ليلة الزفاف رأى العين.

* * *

حين تزوجت من عبدالشهيد كنت طفلة فى الثانية عشرة من عمرى. علمتنى أمى أن أطيع زوجى فى كل ما يطلبه منى لأن طاعة الزوج من طاعة الرب. كل ما أذكره عن تلك الليلة أنها انتهت بآلام شديدة جعلتنى أرجوه ألا يقترب منى، لكنه عاملنى برقة شديدة حتى استمالنى إليه. كنت فى البداية أستجيب له كى أرضيه فقط، لكنى لم أعرف لذة هذه العلاقة قبل مرور سنوات عديدة، حتى أننى أصبحت

أسعى إليها بعد ذلك أكثر منه.

بعد أن أنجبت دانيال ومريم أصيب عبدالشهيد في حادث بالعمل أفقده تلك القدرة الإلهية المقدسة على سريان الحياة بين رجل وامرأة. استسلمت للمقادير وحاولت قدر استطاعتي أن أخفف عنه المصاب، لكنه منذ ليلة الحادث كف عن تدليل مريم وتحول إلى إنسان صامت لا يتكلم إلا في أقصى الضرورات.. أما رقته التي بدأ بها حياته معي فظلت تلازمه حتى فارقني إلى الرفيق الأعلى تاركاً لي قرة عيني مريم ودانيال كأجمل ما تكون الذكرى وأعطرها.

* * *

ما أذهلني حقاً هو التحول بين يوم وليلة من الرضا والقبول فجأة إلى السخط والاشمئزاز والخوف والتقزز والكراهية. حقاً إن وفيق تنقصه الوسامة لكنه مقبول بوجه العموم، ورغم كل شيء فقد كان بوسعها أن ترفضه - كما سبق أن رفضت كثيرين غيره - دون معارضة مني.. لقد أمليت عليه شروطها كاملة فقبلها على الفور، قلت له:

- لن أشترى لابنتي مقعداً واحداً.

فأجاب بكل الرضا:

- أثاث كل المنزل بكامله على نفقتي من أجل عينيها.

قالت له:

- أريد عربة تحت يدى منذ الأسبوع الأول للزواج.

- غداً أسلمك مفاتيحها قبل أن نتزوج.

قلت له بقدرة فائقة على المبالغة تصل إلى درجة الكذب السافر:

- ابنتي عاشت مرفهة لا تطبخ ولا تكنس ولا تغسل.

- هذه الأصابع الحريرية لم تخلق للمعاناة وأنا كفيل بتدليلها أكثر مما تتصورين.

قالت له:

- سأستمر في عملي حتى أحال إلى التقاعد فأنا أعشق العمل.

- ولست أمانع في ذلك.

- وإن لم تعجبني الشقة فعليك بإيجاد شقة بديلة.

- الشقة جديرة بك مثلما أنت جديرة بها.. إنها قصر مصغر يطل على أجمل بقعة بشاطئ الإسكندرية.

وأخيراً قلت له وأنا على ثقة مما أقول:

- إن ابنتي تستحق كل خير فهي خام لا تعرف شيئاً عن عالم الرجال رغم بقائها بالجامعة أربعة أعوام، وسوف تكون عجينة طيعة بين يديك، فهنيئاً لك يا دكتور وألف مبروك.

لقد اختارته مريم بكامل إرادتها. أكان يجدر بي أن ألفت نظرها إلى فارق السن بينهما؟.. وكيف ألفت نظرها إلى شيء لم ألتفت إليه أصلاً، فالسنوات التسع عندي لم تكن لتشكل أية خطورة على مستقبل العلاقة بين امرأة وزوجها، بل إن هذا الفارق مستحب عند غالبية الناس، لأسباب أكدتها الفطرة والتجربة قبل أن تؤكدها أسباب النفس والجسم وفن المعاشرة.

أكان قبولها التام لوفيق بمثابة إغلاق ملف مجهول لقصة حب فاشلة أخفتها عني مريم وهي التي اعتادت الصمت والتكتم منذ طفولتها إلى اليوم، حتى على والدها الذي كان لا يكف عن تدليلها ومداعبتها وإجابتها إلى كل طلباتها؟ دانيال هو الوحيد الذي يتكلم معي ويحكي عن كل شيء حتى عن بعض الأفكار اللادينية الغريبة التي كنت أرفضها بشدة.. إن مريم تحكي لي فقط ما تريد أن تصرح به، ولكني دائماً ما أرى في عينيها الكثير مما تخفيه، وأنا أمها وصديقتها الوحيدة في الدنيا كما يحلو لها دائماً أن تقول.

متى تتكلمين يا مريم يا حبيبتي وتنفضين ما بصدرك؟! ●

(٤)
حليم صادق

١٩٩٠

رغم عشقي للبحر والنوارس والورد والرقص والكتب والغناء، ماتت أمي فجأة.. في ذلك الصباح كانت تدعو لي بالفلاح أما في المساء فكانوا يهيلون التراب على جسدها بلا رحمة لتختفي تحت الأرض إلى يوم الدين.

في لحظة ذهب السكر وجاء الصحو. راحت النشوة وحضرت الإفاقة، فعلمت أنها لو نشرت وأخبرتني بحقيقة الموت لما انتفعت بعيش ولا لذت بنوم. الآن ينكشف لحبيبتي ما لم يكن مكشوفاً لها في الحياة التي جاءت بي إليها ثم فارقتني عنها، وفي المرتين لم يكن لي خيار.

اليوم أطلقت أمي من السجن فأيقنت أن أنسي بها وطمأنينتي تحت جناحها وشغفي بروحها وغفلتي بالظن في بقائها كان جحيماً من الشقاء فجره الفراق الحتمي.. سيقول لها ملائكة الرحمة هنيئاً طبت حية وطبت ميتة، ويفرشون لها فراشاً من الجنة وقنديلاً منها تستضيء بنوره حتى يوم البعث. عليك رحمة الله يا أمي فإنك لا تعلمين مبلغ حزني لعلمي بحزنك على غياب «بسمة» عنك في تلك اللحظات. إنها هناك.. محيطات وبحار وجبال وأنهار تباعد بينكما، مثلما أن بسمة لا تعلم هي الأخرى قدر مرارتي لعلمي بلوعتها حين يصلها النبأ في تلك القارة التي استقر بها زوجها الغني، وكأن مصر قد خلت من

كسرة خبز وقطعة جبن وكوب من الماء وكسوة من قماش وسقف للنوم.

* * *

لم تمض أيام قلائل حتى لحق بها أبى وكأنه مصر على تعقبها من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت.. ولأنى لم أستوعب سرعة المفاجأة الثانية أو ربما لأنى استوعبتها - والله أعلم - فإننى بدأت أزهد الفرحة بكل أهلى وأحبائى وحتى بميراثى من أبى، وكذا بسمعى وبصرى وعضوى التناسلى الذى ظللت منشغلاً به عمراً طويلاً.

أوكلنا - أنا وبسمة - شقيقنا الأكبر «نزيه» بوثيقة رسمية ليتولى شئوننا المالية كاملة فاستولى على الميراث وباع بعض الممتلكات وادعى أنه ينشئ مشروعاً ضخماً فى إحدى البلاد العربية التى كان يعمل بها مدرساً تخرج على يديه ثلاثة أجيال من أبناء العرب العظماء، وأنه سينتقل بنا جميعاً من حياة الإنسان العادى إلى حياة أخرى لم نحلم بها.. وهكذا هاجرت بسمة ولم أرها حتى اليوم، وبكيفية أخرى غاب نزيه ولم أره حتى اليوم، لكنه يختلف عن بسمة فى أنه لم يفكر فى مكاتبتى مرة أو فى إرسال نفحة عابرة من نعيم الحياة الأخرى التى يرفل فى خيرها الآن.. تلك الحياة التى قال إننا لم نحلم بها من قبل، ولقد صدق فعلاً حتى أنه لم يفكر فى رد مستحقاتى الأصلية من الميراث، وكنت أتعجب فى سرى من فعلته الشنعاء فيمنعنى الكبر من مطالبته بحقى وأترفع فى إباء عن ذلك فكيف أتسول حقى من أخى؟

كنت أبعث بخواطرى تلك إلى بسمة التى لم تكن تهتم مثلى بالمال، ولكنها كانت تبعث إليه برسائل قاسية جارحة تتهمه فيها بالبخل والطمع والاعتداء على حقوق الغير ولو كانوا إخوة.. غير أن هذا كله لم يحرك فيه ساكناً.. ومازلت حتى هذه اللحظة غير قادر على فهم الأسباب التى تدفع نزيه إلى اتخاذ مثل هذا الموقف وانتهاج مثل هذا السلوك.

عندما تكرر المشهد الترابى أمام عينى للمرة الثانية خلال أيام قليلة شعرت بغربة حقيقية فى الحياة رغم حبى لزوجتى وأبنائى وإحساسى بأنهم يضفون عليها إحساسا عميقاً بالأمان.. اليوم بات هذا الأمان مهددا فما يدرينى أن يكون الدور على زوجتى للردم عليها فى حفرة مشابهة بعد أيام أو ساعات قليلة؟.. لقد بات واضحاً أمامى أن أى شىء فى هذه الحياة غير قابل للثبات والبقاء مهما كان عنصره شريفاً كريماً، فهو عرضة للزوال بين يوم وليلة لسبب أو بلا سبب، ومما ضاعف من سيطرة إحساسى بتلك الغربة فى حياتى، إحساسٌ خفى بأنى مغترب فى وطنى أيضاً - وأكثر الناس غربة هم الغرباء فى أوطانهم - لأن الغربة خارج الوطن ميسور أمر القضاء عليها بالعودة وليكن ما يكون، أما الغربة داخل الوطن فهى تشعرنى بأنه لا جدوى من مخالطة الناس والثقة بهم أو الاعتماد عليهم.

هكذا تملكنى شعور جارف بالحنين إلى قوة مجهولة أقوى بكثير من قوة حب امرأتى وأولادى لى أو حبى لهم، قوة آنس إليها وتحتوينى بحنانها الطاغى فأودعها سرى ونجواى وتكون سكنى الآمن أماناً أبدياً لا خوف فيه. لكن ما زاد طينتى بلة هو طبيعة عملى ومصدر رزقى الوحيد، الذى أصابنى بملل من نوع غريب تمتزج فيه الرتابة بالخوف من الحياة والموت معاً. فحديثى اليومى المعاد للسواح عن تلك التوابيت وعن أصحابها الذين ماتوا من آلاف السنين.. فلاسفة وفنانون ومفكرون وعلماء راحوا فى سبات نوم الزمن العميق منذ عهد سحيق، لا تبرر لقمة العيش محاولة بعثه كل يوم من جديد لمجموعة من خلق الله القادمين من آخر الدنيا ليعبروا فوق كلماتى إلى بلادهم مرة أخرى متحدثين بفخر عن حضارتهم القديمة والحديثة والتى لست أرى من مظاهرها الآن سوى البلطجة السياسية والاستعمار بأنواعه وسفك الدماء والسيطرة والعنف والعنصرية والتبجح والاستعلاء على مساكين الشرق.

والحق أنى كنت فى بداية الأمر منبهراً بوظيفتى وكان فكر الغرب وفلسفته وعلمه وفنه طاغياً على كيانى حتى أن أبى كان يتعثر أحياناً فى كتب اشتريتها ورصصتها فجأة فى أى مكان. ثم تكرر الأمر فى بيتى فامتلأت مكتبتى وغرفة نومى ومساحات أخرى من الصالة وغرفة الطعام بتلك الكلمات المرصوصة التى كنت ألتهمها بنهم مزمن منذ صباى وحتى عهد قريب.

ولقد فوجئت فيما بعد بنتائج غير سارة لذلك الانبهار الذى لم يقف عند حد. أولها أننى بلغت السابعة والأربعين دون أن أتمكن من تحقيق أمان مادى لمستقبل ابنى وابنتى كما يقول ويفعل كل الناس. لم أحترف أو أمتهن عملاً من أى نوع آخر كان كفيلاً بسد تلك الثغرة الهامة، أقربه العمل مع أخى الهارب، أو حصولى - كحد أدنى - على حقى منه بأية وسيلة، كما لم أسافر فى إعارة لإحدى البلاد العربية مثلما فعل الكثيرون من زملائى فعادوا مرتاحين من تلك المشكلة الأزلية: الاحتياج المادى!

فهل ألوم اليوم أبى على غرسه بذور القناعة والرضا فى نفسى منذ طفولتى وحثى على ألا أعمل إلا فى المجال الذى أحبه فليست الدنيا كلها نقوداً؟!

أما النتيجة الثانية التى لم أكن أشعر بها أبداً فهى اكتشافى التدريجى لجهلى الشديد بروح الحضارة الشرقية وتراثها الروحانى الهائل الذى أخذ يستولى علىَ بشدة وكأننى وقعت فجأة على وسيلة معرفية جبارة للاستشفاء من انبهارى القديم بانبهار أكثر وأروع وأجمل.

قادتنى المصادفة إلى كتاب عن العشق الإلهى فشدنى إلى كتب عن التصوف، ووجدت نفسى أسبح فى بحور العشق ومقامات الحب والوصل. حدث هذا كله بينما أمارس حياتى الرتيبة دون أدنى تغيير

سواء في البيت أو المتحف.. أما قلبي فقد اكتشفت أنه كان صحراء جرداء مظلمة متعطشة إلى النور السماوى والحب الإلهى. كان جفافى الروحانى بحاجة إلى ماء مقدس يبلل روحى ويرطبها بذلك الندى المعطر الذى لا يعرفه إلا من كتب الله لهم السعادة الحقة فى الدنيا والآخرة.

وهكذا تصورت أننى غريب بين خلقى فحلمت بالأنس فى فناء المحبة الربانية. وأمسيت مجهولاً عندهم فلا جاه ولا مال ولا حسب ولا نسب ولا سلطة ولا ثروة إلا فى الوصل بجلال الله. وقلت بعد اجتيازى كل تلك الدروب وتعثرى فى كل هذا التراث وتأملى لكل ما حدث أن خلاصى الحقيقى فى القرب من الله.

ومن الغريب أننى لجأت فى تلك الأيام للقراءة كثيراً فى كتب الجن بدافع مازال غامضاً علىَ حتى الآن، وأحمد الله أننى تحررت من هذا الأمر بعد إذ اكتفيت بالمعرفة اليقينية أن هناك كائنات أخرى غير مرئية خلقها الله تعيش بيننا ولا نراها، منها الطيب والخبيث ومنها المؤمن والكافر وكفى الله المؤمنين القتال.

ظللت لعامين متتاليين أقلب فى أحوالى كما لو كنت متفرغاً للفرجة على ذاتى، وكان بحثى عن وسيلة للقرب من الله هو بحث عن عالم يسوده العدل والجمال دون أن أزهد فى دنيا الأسباب كما فعل المتصوفة، فمازلت أحب الدنيا وأرغب فى معايشتها وملذاتها، ولا يخطر ببالى تحت أية حجة أن أتنصل من مسئولياتى بها.

ولقد آلمنى خلال تلك الرحلة النورانية أن أرى أعضائى تتخاذل ووساوسى تزداد ولسانى يتكاسل عن الكلام فأكاد ألمس بقلبى سر الأسرار وهو أن ما تلذذت به فى حياتى فيما انصرم من عمرى حين أتأمله اليوم ما هو إلا سراب، ويكاد يكون لا شىء بالمرة. وكيف بالله أتوق إلى العودة إليه ساعياً بنفسى إلى الألم بدلاً من اللذة وإلى

النقصان بدلاً من الكمال ؟!

أيقنت أننى فى صحوة من العمر ينبغى التشبث بها دون خوف أو وجل، واللعنة على سيزيف وصخرته التى فلقوا بها أدمغتنا، فالقرآن يقول بعبثية الحياة من قبل أن يولد هؤلاء الفلاسفة المتحذلقون الذين نمجدهم ونسير فى ركابهم.. من الذى قال: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد»؟ ومن الذى قال: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً»؟!..

إنى أعيش أيام استنارة أقف فيها وأدرك وأتوب وأتدرب على عناد نفسى وعلى الخضوع لصولة بديع السماوات والأرض وإرادته فأبرأ من حولى وقوتى - وهما الوهميان الهزيلان - إلى حوله وقوته وهو الحق القوى العزيز.

✱ إنى أنظر اليوم إلى «عايدة» وأسائل نفسى أين ذهب جمالها؟ لو كانت تملكه حقاً لظل باقياً على وجهها وجسدها وتحت أجفانها وبريق عينيها. إن جمالها كان وديعة ربانية تحوى الحب والحنان واللذة والشهوة والرحمة والمودة، لكن زمن الإيداع قد ولى وبدأ صاحب الوديعة فى استرداد حقه منها.. وبدأت عايدة فى الفتور وفى زهد ما لم تكن تزهد فيه يوماً.. ورغم ذلك فإنى مازلت أحبها، وأحب جمال الجميل صاحب الوديعة فيها، فمالى أخاف القرب منه ومالى أخجل من الإقدام عليه وهو الغفور الرحيم؟! ●

(٥)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٢

البراكين الكامنة فى صدرى تبدأ فجأة فى الانفجار بركاناً يلى الآخر، مزلزلة أرضى وكيانى. كيف أنتبه الآن فقط إلى أننى لم أحتفظ بصداقة حقيقية عميقة مع واحدة من بنات جنسى حتى الآن؟..

لا من أيام الطفولة أو الصبا، ولا من أيام الجامعة ولا بعدها!.. وبصفة خاصة بعد ليلة زفافى اللعينة.

لقد حاولت - بلا حماس - مع بعض زميلاتى فى العمل وجاراتى فى السكن ولكنى لم أوفق فآثرت الابتعاد والوحدة. والحق أننى لم أكن أشعر حينذاك بأننى خسرت شيئاً هاماً أو أننى أفتقد شيئاً أحتاج إليه. لم أشعر بالرغبة فى تبادل الثرثرة معهن حول ما يتحدثن عنه من أمور تافهة عن الرجال والملابس والمأكولات والمجوهرات والمحلات والفضائح الزوجية وحرية المسلمين فى الطلاق والزواج.

كن ينفرن من صمتى ويظنن بى الكبر والاستعلاء، أما الحقيقة فهى أنى كنت عاجزة عن المشاركة أو غير راضية فيما يزيد عن حدها الأدنى.

ربما كانت الدكتورة نادية عبدالملاك هى الاستثناء الأوحد فى حياتى، والذى لم يدم رغم ذلك طويلاً، كانت دميمة الوجه سوداء ذات شعر أجعد وجسد لا معالم لتشكيله، وكانت نظرات عينيها توحى بحزن عميق، لكنى كنت أرى نوراً صافياً يشع من هذا الحزن يسلب الروح وكأنه منبعث من ملك.. أما صوتها الحنون فكان يجذبنى إليها فيتعلم لسانى النطق وأتكلم.. حتى علمت بالنبأ الحزين:

- نادية أشهرت إسلامها .
- ماذا ؟ غير معقول . . لماذا ؟
- لا أحد يعرف السبب .
- لابد أنها جنت أو أحبت مسلماً غرر بها .
- ومن ذا الذى يغرر بهذه العانس القبيحة الغبراء ؟ !

اختفت فجأة من البيت والمستشفى والنادى فلم أعثر لها على أثر حتى توهمت أنها غادرت المدينة إلى غير رجعة ، ولما فوجئت بها يوماً فى حديقة النادى تتهادى بزيها الإسلامى الفضفاض فكرت أن ألف حجابها حول عنقها وأظل أضغط عليه حتى أخلص منها ولكنى لمت نفسى على ذلك الوازع الشيطانى واكتفيت بالغيظ منها والحقد عليها .

أقبلت علىَّ بابتسامة ساذجة ووجه بشوش ، وما أن اقتربت منى حتى مدت يدها لمصافحتى فلم تنل منى غير نظرة احتقار وتركت يدها ممدودة فى الهواء وواصلت سيرى والندم يمزقنى على ما فعلته بها دون وعى منى ودون رغبة صادقة فى ذلك .

يا إلهى ! هل أموت قبل أن يكون لى صديقة واحدة فى هذه الحياة الدنيا أتكلم معها وتستمع إلىَّ ونضحك أو نبكى معاً على أى شيء ؟ ! . إن شهادة الدكتوراه المعلقة على الحائط لا تستطيع أن تكلمنى أو تحبنى ! . . ليتنى أتوصل يوماً إلى الإحساس الحقيقى بالحب ، ولو للحظات خاطفة .

١٩٦٢

بثبات وقفت أمام باب شقة سهل عامر التى يعيش فيها وحده ، خيل إلىَّ أننى أحببته فجئت إليه مباشرة . لم أكن أبادله الحديث كثيراً كزميل بينما كانت البنات تتنافس على صحبته فهو من أوائل الدفعة كل عام وهو الثرى الوسيم اللبق الذى يحبه الجميع ، أوهكذا يُظهرون

له.. أما أنا فقد أردته لنفسي. لم أتردد لحظة في الضغط على الجرس ضغطتين متتاليتين. حين فتح الباب ووجدني واقفة أمامه في صمت كاد يسقط مغشياً عليه.

ـ من ؟ .. مريم ؟!

ـ هكذا أظن.

تبخرت شجاعته الاجتماعية وضاعت لباقته وهو يتلعثم قائلاً:

ـ خير.. كيف عرفت عنواني؟.. أهناك شيء في الـ..

قاطعته لأرحم نفسي وأرحمه.

ـ ألن أدخل؟

ـ تفضلي.. تفضلي.

سارع إلى إحدى الغرف وعاد مرتدياً روباً فاخراً.

ـ أنا لا أصدق عيني.

ـ لماذا ؟

أشار بيديه إشارات مرتبكة وارتسم التوتر على عضلات وجهه وكان القلق ينسكب في غزارة من عينيه الحائرتين، لكنه لم يستطع الكلام.

ـ اسمع يا سهل. أنا لا أعرف إلا أقصر الطرق.

ـ أعرف هذا فكل شيء عندك مختصر إلا جمالك.. لكن ما الخبر؟

أبهرتني بلاغة إطرائه الموحية بالكثير.

ـ يخيل إليّ أني أحبك.

رغم أنه قد بدأ يتماسك إلا أنه ابتلع ريقه ثم ابتسم، ثم انفجر ضاحكاً. لم يكن أمامي بديل عن مشاركته الضحك حتى لا أكون في موقف أدنى.

ـ هذا شرف لا أستحقه.

ـ بل تستحقه لو كنت تبادلني الحب.

ـ أنت تتكلمين عن الحب بصرامة الكلام عن معادلة رياضية.

ـ هل تحبني يا سهل؟
ـ حتى لو كنت أحبك فإن..
ـ هه ؟!.. ماذا ؟!!
أكمل.. حتى لو كنت تحبني.. إيه؟!
ـ أنا في الحقيقة لست أجد ما أقوله.. المسألة..
قاطعته بغضب لا مبرر له:
ـ المسألة هي اختلاف الدين، أليس كذلك؟
ـ لم أقصد ذلك،ورغم اعتزازى بالإسلام فالحب لا دين له ولا وطن، وإنما نحن مازلنا طلبة...
قاطعته مرة ثانية ولكن بهدوء:
ـ لا تكمل.. أنت أعجز من أن تحب مثلي من النساء.
ولست أعرف لماذا كنت قاسية عليه متعجرفة معه بذلك الرد السخيف؟!

١٩٦٠ ـ ١٩٦٢

عشقني كل الرجال الذين التقيت بهم على وجه التقريب، لست أدرك كنه ذلك اللغز الكائن في تأثير نظراتي ـ التي لا أفهم مغزاها ـ عليهم. ذلك اللغز الذى يزيغ من أبصارهم ويسيل من لعابهم ويحولهم أمامي إلى أقزام ضعيفة، ولكني لم أبال بأحدهم.

لقد تلقيت الدرس الثاني على يد الدكتور عبدالجليل صيام، حين قبل يدى بحرقة شديدة في مكتبه وقد انحنى بقامته المديدة وجسده الطويل العريض الشبيه بأبطال كمال الأجسام، متوسلاً إليَ في ذلة ما دونها ذلة أن أسمح له باحتضاني وتقبيلي!

تلك اللحظة أزالت هيبتي من عالم الرجال ونسفت مهابتهم في ضميرى. تبددت أوهام تلك الأساطير المبهرة عنهم والتي كانت

تصورها لنا مراهقتنا ونحن مقبلات على ربيع العمر، فى صور تسلب عقولنا وتستولى على قلوبنا وتثير احترامنا لهم وخوفنا منهم وحبنا لهم.

تبددت تلك الأوهام عندما فقدت احترامى لأستاذ وعالم كبير يضع على مكتبه مصحفاً ضخماً ويعلق على الحائط المقابل لمقعده لوحة عليها آية قرآنية شهيرة، ويحاول التغرير بفتاة فى عمر ابنته أو أخته الصغرى، فأى الرجال جدير بالاحترام بعد ذلك؟!

لقد استمتعت بإذلال هذا الرجل بغير أن ينال منى شيئاً، ورغم ذلك كنت أحصل على درجة الامتياز فى كل عام. لكنه أفصح فى العام النهائى عن نيته المبيتة عندما أيقن أنه لن يرانى بعد ذلك إلى الأبد.. إذ أقسم لى إنه قادر على سحق حلمى بالعمل كمعيدة بالقسم بأن يسقطنى فى مادة واحدة على الأقل، وما أسهل هذا عليه..

هل كل الرجال هكذا؟.. ومن أين لى أن أدرى؟!

فى تلك الليلة ذهبت إلى مسكنه الصيفى فى الموعد الذى ضربه والذى سوف أظل أذكره مدى حياتى وكان الثامنة من مساء يوم خميس.

فى الطريق إليه فكرت مرة أن ألقى بنفسى تحت عربة مسرعة، ثم فكرت مرة أخرى فى شراء سكين أخفيه فى حقيبتى لأتخلص من حياته وأبقى على حياتى الشريفة البائسة بعد أن مرغ وفيق آدميتها فى ترابه الدنس. فكرت أن أطعن سهل فى قلب عبدالجليل مثلما طعننى زوجى فى روحى.

السؤال الذى كان يطن فى أذنى حتى كاد أن يصمنى: هل يفعل هذا الأستاذ مع الفتيات المسلمات ما يفعله معى أم أنه يستضعفنى ويستغلنى مستهينا بحولى وقوتى وكرامتى مكرراً ما فعله بى وفيق ولكن بتنويعة جديدة فاجرة على نفس اللحن الحزين.

ما أن أبحت له بعضاً من نفسي مع أقصى درجات التحرز والتحفظ، وأحط سبل الإذلال والإهانة، حتى خر ساجداً بين قدمي لاهثاً كذئب جائع سقطت يمامة بين مخالبه. وحين أراد أن يتجاوز الحد الذى سمحت له به صفعته بأقصى ما لدىّ من قوة على وجهه فتراجع معتذراً وهو ينهنه كطفل غبي مذعور لا يعرف كيف يسيطر على نفسه.

هكذا أصبحت كما أردت: المعيدة الثانية بالقسم بعد الدكتورة مدنية المعيدة الأولى التى سبقتنى بعام واحد.

١٩٩٢

ها أنت يا حليم تأتى إلىّ اليوم لتفجر مأساتى الحقيقية المستترة خلف كل عذابات حياتى والتى لم أستشعر بشاعتها إلا بعد أن رأيتك، وهى أننى سوف أموت حتماً قبل أن أحب رجلاً ويحبنى! ●

(٤)

حليم صادق

١٩٩٢

ضربت بأغلى عامين من عمرى أمضيتها مجاهداً بروحى فى القرب من مولاى عرض الحائط، حين دفعنى جرف الهوى الجامح، فألقيت بروحى فى نهر مريم غير عابئ بما كان من أمرى وما قد يكون.. ولم يبق لى من رحيق العامين الماضيين ورصيدهما سوى التمسك بالصلاة.

هاتفنى فى برقة خاطفة بينما أقف على محطة التاسعة والأربعين. تناسيته فى البداية فلم يغفل عنى «وأنا الذى غفلت عن مولاى». تجاهلته فصار يباغتنى قبل الشروق وبعد الغروب وآناء الليل حتى انتبهت إلى إلحاحه.. عندما اقتربت من نهاية المحطة كان يراودنى فى صحوى ومنامى وذهابى وإيابى وقيامى وقعودى وجلوسى ووقوفى وركوعى وسجودى إلى الله فيقول لى: مريم.. مريم.. مريم!

ظننته جاءنى بالخلاص بعد طول ارتقاب، فإذا به يجيء بتساؤلات جديدة حول الجبال الرواسى والشمس التى تغرب فى الغرب والقلب الذى يعشق حتى الرمق الأخير، والصديق الوفى، والزمن الذى يفوت ولا يعود، والذاكرة التى تنمو ثم تذبل جارفة معها أشلاء الأحبّاء والخصوم.

حدثنى عن قنطرة صغيرة أعبر عليها من الرغبة إلى الراحة، وقال إنى لم أكن من قبل شيئاً مذكوراً، وإننى سوف لا أدرى بعد العبور ماذا سيكون من أمرى وإلى أين سيكون اتجاهى. سألته المشورة فطالبنى

بالجهاد والمكابدة وبشرني بالسعادة الأبدية وقال لي :

ـآن الأوان كي تتوقف وتفكر وتتأمل على أعتاب الراحة فربما كنت من الناجين .

* * *

كان اليوم كالأمس كالغد . . موظفون أراهم ولا أبصرهم ، أقبع في غرفتي أجتر التكرار في رضا أحياناً وفي ثورة حبيسة أحياناً أخرى . . غير أن سماء نافذتي زرقاء تطل على مراكب صيد ونوارس تحلق في الأفق ورجال يسعون وموج يهيم في رحلة أزلية أبدية . . وحين يسود الصمت فلا صوت إلا وشوشات الموج وهسيس أغصان شجرة عتيقة تقع تحت نافذتي ، ووصوصات عصافير تتناوب في رضاى وثورتي بين الفرحة والشجن . . أرى الأمس في اليوم واليوم في الغد فلا أبالي بزمني . أصلي بحرقة إلى الله لائذاً بما تبقى لي من عطر العامين الماضيين الروحاني الجميل . . وأقرأ الفاتحة على أرواح الموتى القابعين في جوار المتحف . . رهبان وقسس وكهان ونحاتون وفلاسفة ومتصوفون وعلماء فلك ورياضة كانوا ينيرون الدنيا يوماً بفنونهم وعلومهم وآدابهم . . رفات عمره ثلاثة وعشرون قرناً من الزمان الغابر لا يجاورني فحسب وإنما يغمرني ويحويني وأحبه .

من بين الرفات وأمام السور الذي يفصل بين حديقة المبنى وشارع البحر ، لمحتها بين مجموعة من السياح ترتدي ثوباً في لون المصيص المصرى . تشير بيدها في حركة رشيقة واثقة إلى أحد المقابر الملاصقة للمبنى . توقفت قليلاً عن الحديث واستندت في تلقائية بإحدى ساقيها على السور وراحت تعبث بهدوء في شعرها . وحين اقتربت من أسفل نافذتي العالية رأيته بعيني قلبي يرفرف من فوقها حاملاً تحت جناحيه الرقيقين كنانتين حريريتين مليئتين بسهام من ذهب ورصاص . ثم حام قليلاً فوق المقابر وحطّ فوق النافذة فصار في مواجهتي . فنظرت إليه في

ذهول فأنا لست أعرف كيف أخاطب الملائكة ولا أفهم لغة الطيور. أدرك ما بى من هول فنفحنى سهماً ذهبياً ونظرة حنون، وغاب فى زمنه السحيق.

الوجه المصرى الخمرى الذى لا ينسى. العينان العسليتان الذهبيتان. الشعر الكستنائى المتماوج... ونفس الابتسامة الغائصة فى لجة من الأسرار. الدكتورة مريم عبدالشهيد التى تكبرنى الآن بما يقرب من أربعة أعوام.. شبيهة شقيقتى الحبيبة بسمة.. ومعيدتى التى درست لى الآثار لعامين متتاليين قبل تخرجى فى عام ١٩٦٤.

لكن ما الذى جاء بها إلى هذا المكان وقد حسبت أنها أصبحت أستاذة فى السلك الجامعى وأنها شغلت به منصباً مرموقاً وقد تجاوزت الآن الخمسين.

كان العناق الأزلى بين الأمواج عبقًا برائحة التاريخ، وكانت حديقة الموت تدعونى للتحقق من تلك المفاجأة. مازلت يا مريم مليكة على عرش الجمال الفرعونى الفريد. الزمن ألعوبة بين يديك وحدك والكل رفع له راية الاستسلام.. هى مريم ولا أحد سواها. تمشى فى خيلاء أوزة برية. أسمع وقع خطواتها بقلب هش تتهادى على نغمات عود شجية بين المرمر المصرى والرخام اليونانى وتماثيل الموتى وتوابيتهم.. أسافر إلى الدانوب وأعود إلى النيل فى حلم خاطف. أجلس فى مقهى شعبى أدخن المعسل. تتجه بنظراتها نحوى لنلتقى بعد فراق قدرى بين طالب ومعيدته تجاوز من الزمان ربع قرن وبضع سنوات.

ـ بعد آخر عودة لى من أمريكا انتدبتنى وزارة الثقافة للعمل كمرشدة سياحية بناء على طلبى، وأنت ماذا تفعل هنا؟

تعجبت كيف ارتضت لنفسها بهذه الوظيفة غير اللائقة بمقامها وعلمها مالم يكن هناك دافع جوهرى لذلك.

ـ أنا مدير المتحف.

ـ ياه.. بعد كل هذا العمر نلتقى لنعمل فى مبنى واحد ؟!
ـ المبنى واحد لكنى أعمل مع الأموات وأنت تعملين مع الأحياء.
ـ لست أدرى أينا ينبغى أن يحسد الآخر.. عموماً فأنا قادمة لتوى من الكنيسة ولقد طلبت من الرب الخلاص للأحياء والأموات معاً.
ـ ولماذ تركت الجامعة ؟
ـ خلافات عديدة مع الرؤساء والزملاء.
ـ لماذا ؟.. التنافس على الترقية أم البعثات ؟
ـ وهناك أسباب أخرى.

كنت أوجزها لزملائى فى القسم بالفتنة الغامضة. كل العيون تشتهيها فى تكتم صاحب عنيف، ولولا صمتها الوقور ونظرتها الحزينة الحانية لأثارت القتال عليها بين جنس الرجال بلا تفرقة بين طلبة أو أساتذة أو سعاة.

كان سر قوتها الطاغية يكمن فى عينيها، به تصمت فتتكلمان، وتهمس فتوحيان، وتومئ فتبتسمان، وتفكر فتشردان.. أما فمها الجميل فكان دائماً مغلقاً على لسانها كخرساء منذ مولدها.

كنت أتحاشى النظر إلى عينيها بقدر كراهيتى لكل ما هو غامض، ورغم ذلك لم أشعر تجاهها يوماً برفض أو كراهية، كما لم أقع فى كمين فتنتها الخفى الذى وقع فيه العديد من زملائى الطلبة وزملائها من المعيدين، وإنما كان يداخلنى قدر من الإعجاب بشخصها على وجه العموم. وكنت واثقاً أنها تستشعر بدقة متناهية ما يجول فى خواطرنا جميعاً تجاهها كأنثى ذات جمال متفرد فى طبعه، وأنها كانت تخفى سعادتها الفائقة به فى براعة ودهاء، وكأنما إعجاب الرجال بها ـ دون أن تمنح أحدهم أملاً فى اقتحام عالمها الصموت الغامض ـ هو الحافز الأوحد لبقائها على قيد الحياة.

ويوماً قال لى زميلى سمير زخارى إنها تخفى غروراً قاتلاً خلف

ابتسامتها الحيية وتواضعها الشديد وعينيها الأسيانتين، فاتهمته بالحقد لانقطاع أمله في مجرد الاقتراب من عالم الجمال الذى يحف بكيانها ليبهر الجميع، وقلت له ساخراً.

- قصر ذيل يا أذعر.. مع أنكما من قبيلة واحدة.

ولم يكن هناك ما يدعو للاستفاضة من جانبى فى الحديث عنها إذ كانت نظرتى الغالبة، هى نظرة التلميذ إلى معيدته، على عكس نظرتى الصريحة الود تجاه معيدتنا الأخرى «مدينة محمود» التى يتسم سلوكها دوماً بالوضوح والصدق وشدة الحياء.

* * *

رغم دهشتها للمفاجأة القدرية التى جمعتنا فقد أقلّت - كعادتها التى لم يغيرها الزمن - من الحديث وأتقنت الاستماع والحوار بعينيها دون كلماتها. أما الذى أدهشنى بحق فهى أنها تذكرتنى مثلما تذكرتها تمامًا دون لحظة تفكر أو تأمل أو استرجاع للزمن، وكأننا لم نفترق إلا منذ أيام قلائل.

لخصت لى عمرها الفائت فى ابنها «بشارة» الذى تزوج وأنجب واستقر فى القاهرة وقتياً، تمهيداً لهجرته النهائية إلى أمريكا.. وفى زوجها الدكتور وفيق، ذلك الطبيب الذى وهب حياته للخوف من المستقبل. امتدحت فى خصاله كثيراً. قالت إنها تناديه قائلة يا «بابا»، فالشعور عنده بالرحمة الأبوية قوى، وهو لا يحرمها من شىء تطلبه، لكنه دائم الخوف أن تفارقه يومًا لسبب من الأسباب وتبقى بأمريكا إلى الأبد، الأمر الذى يجعله يضاعف من تدليلها ومعاملتها معاملة الأب العطوف لصغرى بناته.

ثم قالت إنها ترتاح لهذا الأسلوب فى الحياة لأنها لا تستطيع أن تحتمل منغصات العيش مع شاب تنقصه خبرة فن التعامل مع امرأة ذات مواصفات خاصة مثلها.

لم أسمع رنة غرور أو كبرياء فى حديثها ولكنها كانت تتكلم عن أمر عادى جداً يخصها.. ثم قالت إنها فى النهاية لم يبق أمامها من معالم الرحلة إلا الوظيفة التى تكرهها وتتمنى أن تتخلص منها، والكنيسة التى لا تزورها إلا قليلاً والنشاط الاجتماعى المحدود الآخذ فى الفتور، والزيارات التى لا تنقطع للأم - صديقتها الوحيدة فى الحياة - وزيارات أخرى للابن صارت تتباعد بمرور السنوات.

لست أدرى لماذا لم أصدق توصيفها الخامل لحياتها فأنا أعرف أنها شعلة من الحركة والطموح، ولكن لماذا تكذب إن صدق حدسى؟! لقد انتابتنى رغبة عنيفة فى أن أفرغ لها فى هذا اللقاء الخاطف كل ما بجعبة حياتى من أفراح وأتراح رغم أنها لم تبد اهتماماً مماثلاً بالسؤال عن حياتى. كانت تتحدث وتستمع وتشعر وتفكر بعينيها المشعتين بقوة كالسحر تعبث بالزمن فأعجز عن قراءتها بالتقويم المسيحى أو الهجرى أو العبرى أو القبطى.

قرأت على كفها تعويذة فرعونية لجلب الحظ وتمنيت النجاة من قدرة عينيها على استنطاقى للبوح بما أريد وما لا أريد، وقرأت على صفحة الهالة الجميلة الداكنة تحت عينيها أن هناك بئراً عميقاً يحوى أسراراً لا يباح بها قابعا خلف هاتين العينين الذهبيتين.

أعادنى حياؤها الصامت المتقن إلى تلك الأيام الساحرة من العمر حين لم أكن أدرى أن بلوغ قمم السعادة والمتعة والفرح لابد أن يفضى فى النهاية إلى الخوف من فواتها، وأن كل لذة مآلها الزوال، فالموت لها ولنا بالمرصاد.

- كنت أظن أنك لن تتذكرينى بسهولة.

- مثلك لا يُنسى يا حليم.

- لماذا؟

- لا أعرف.

كلمات مقتضبة يستحيل إيجازها بأكثر مما أوجزتها مريم فلم تزد عليها. مجرد كلمات أفرزتها اللحظة. لكنها كانت تطن فى أذنى بإلحاح عجيب قبل أن أتمكن من النوم.

قال لى الهاتف أنك فى الطريق إلى الخمسين يا هذا.. والنبض قد بدأ فى الخفوت والحرارة أخذت فى الانخفاض، أما المشاعر فتجمدت وأصبح الحب الأوحد والموت قرينين مترادفين لا ينجح فى الفصل بينهما شعور بالذنب أو اجتهاد فى إصلاح ما أفسدته الأيام أو محاولة يائسة لاستنهاض خفقة قلب قديمة أو لقاء حب مسروق أو قبلة مراهقة خاطفة أو حتى تسلق نخلة واحتضان عناقيدها الفتية والعبث بثمارها مع الأنداد.

إنى أدعى السعادة بأسرتى مثلما تدعى أسرتى السعادة بكونى ربها البار العطوف بالزوجة والأولاد.. يحيط بنا الحب والتفاهم ويضمنا ويحوينا.

رغم ذلك فقد ظللت أنتظر طلوع صباح اليوم التالى طيلة الليل بشوق ماظننت أبداً أننى سوف أكابد حلو مرارته فى العمر مرة ثانية.

وفى بحر الأحلام سألتنى عروس البحر عن عشقى للرقص والشعر والصحبة والكأس والسهر، فخلعت عنى نفسى لأغرق بإرادتى حتى أستنشق نسمة من عبير الحياة مرة أخرى من جديد قبل أن تولى بلا عودة.

قالت لى العروس:

ـ أنت تريد أن تبدأ من حيث كان ينبغى أن تستعد فى أمان للانتهاء.

كانت تقترب من السور فى ثوب بلون النجيل وبصحبتها بعض من عمال البناء، ترتدى نظارة شمسية وتضع على شعرها منديلاً أسود ذا حواش مطرزة. طال تأملى لها من النافذة واجتاحنى شعور غريب وأيقنت أننى كنت أخشى ألا تحضر مثلما كنت أخشى أن أزوها فى

مكتبها، وحين توارت عن أنظارى ألمّ بى حزن عجيب، اقترن بطيف بسمة وقول زوجها «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها».. وكان الجو غائماً ودموعى تنهال فى المطار الكئيب من قلبى وعينى ومن أنفى وفمى قبل أن تهاجر بسمة إلى أبعد قارات الدنيا.. ارتعشت قدماى وكنت واثقًا أننى لن أراها مرة ثانية.

ولما عادت مريم سألتها عبر التليفون:

ـ لماذا انصرفت مبكرًا من الموقع؟

ـ كان لدى عمل بعمود السوارى.

ـ كنت أفكر فى دعوتك لتناول الشاى بمكتبى.

ـ صعب.

ـ لماذا؟

ـ ربما لظروف العمل أو أسلوب تفكير الموظفين.. لا أعرف ماذا أقول.

كانت بسمة مقلة هى الأخرى فى كلماتها، حتى الابتسامتان متشابهتان إلى حد كبير، وكأنما نفخ مفتاح الحياة فى فم كل منهما فى نفس اللحظة.

لكننى لن أرى بسمة ولن أنعم حتى بصمتها مرة أخرى.. ولماذا جاءت مريم بصمتها هى الأخرى لتجلس فى الطابق الأرضى من نفس المبنى لعامين أو ثلاثة من حياتى أو ربما لسبعة أعوام حتى تحال إلى التقاعد؟!

قال لى الهاتف: «إن حياتك بحاجة ماسة إلى من تعرف كيف تجلس على عرش قلبك وتتمطى فى قلبه وتنام قريرة العين.. ويومها سوف تحظى بنعمة القلق الجميل» ●

(٧)

عايدة فؤاد

١٩٩٢

منذ وفاة أم حليم وأبيه فى أسبوع واحد وغياب أخته وأخيه نهائيًا عنه، بدأ يتحول إلى إنسان آخر غير ذلك الذى كنت أعرفه حتى عامين من قبل.

فى تدرج سريع وجدته يستبدل الخمر والموسيقى الكلاسيك والروايات العالمية وكتب الفلسفة، بالذهاب إلى المسجد فى أوقات الصلاة وغيرها، وقراءة مجلدات ضخمة للغزالى وابن عربى وجلال الدين الرومى وابن الفارض والتوحيدى والحلاج.

فى بداية الأمر أدركنى شعور بالخوف ممتزج بفرحة خفية لاتجاه زوجى إلى الله وانعكاس سكينته على وجهه وصوته وسلوكه معى ومع الأولاد. لقد أصبح أكثر وداعة وطيبة وحنانًا، لكنى كنت أراه فى بعض الأوقات منقبض النفس رغم ما قد يبدو من انشراح صدره بسر خفى لابد أنه توصل إليه لا بعقله الشديد الوعى وإنما بروحه الشديدة الشفافية.

اطمأن قلبى ولم تعد تهاجمنى نوبات الغيرة القاتلة التى كانت تتعاقب علىّ بين الحين والآخر كلما اشتممت رائحة علاقة نسائية جديدة تعبر حياته.. إن أكثر حبى لحليم هو فهم لطبيعته الشديدة النقاء، فهو لا يحب الكذب ولا يعرفه ولا يستطيع - حتى لو أراد - ممارسته فى أى مجال يتسع لحركة حياته سواء فى العمل أو فى حياته الاجتماعية أو فى بيته الذى يحب كل ركن فيه وكل كائن يتحرك بين أرجائه ولو كان صرصوراً صغيراً.

كل امرأة عرفها غيرى عرفتها وتوصلت إلى معرفة كيف التقى بها، وإلى أى حد وصلت العلاقة الخفية بينهما. إن حليم لم ولن يخوننى ولو

مـرة واحـدة مع أى من هؤلاء النسـاء. بل إنـى أجـزم أنه لن يفكـر فى ذلك أبداً، غيـر أنه إنسـان ملول شـديد الضـجـر والقـلق، يبـحث فى مثل تلك العلاقات العابرة عن أشياء غامضة يخفيها عنى ربما لأنه لا يعرفها تماماً، يتـمنى من قلبـه أن يصـرح لى بها لولا خشـيـتـه أن أسىء فهـمـه فيـجرح كـرامتى. كنت أقدر فيـه صـدقه الشديد مع نفسـه حين يخطئ. يقـول لى فى مـثل تلك الأحـوال إنه غيـر راض عن نفسـه ويترك لى أن أستنتج ما أشـاء. هو يخفى عنى إذن لكنه لا يكذب علىّ. هو يعرف غيـرى أحيـاناً لكنه لا يخوننى أبداً لأنه لا يستطيع ملامسـة جسد امرأة لا يحبها وتحبه.

لقـد امـتنع منذ عـامـين تمامـاً عن تـلك العـلاقـات، بل إن مـجـاله الاجتماعى كاد يكون منحصراً فى صداقات المسجد، وكلها جديدة. أما فى العـمـل فـإنه بطبـعـه لا يمـيـل إلى الصـراع من أجل منصب أو ترقـيـة ولهذا لم يتقدم بخطوات سريعة نحو الدرجات القيادية العليا.

جـاءنى يومـاً وهو فى غـاية الدهشـة والألم، يشكو بمرارة وحـزن من أعـز زملائه العاملين معه فى الإدارة الثـقافيـة التى يتبعهـا المتحف. لقـد تأكد من دس الزميل وكذبه وخسته لأجل الحصـول على ترقية يستحقها حليـم ولا يعـبـأ بهـا ولا يسـأل عنهـا فـهـكذا طبـعـه الغـريب فى تلك المســائل، والحوار معه حولها لا يفيد.

الذى فاجأنى فى الأمر أنه انهار أمامى فجأة فى البكاء كطفل صغير. وددت لو أسارع بوضع رأسه على صدرى وأحتضنه وأربت على ظهره حتى يهدأ، ولكننى لم أكن فى سـرعة الفعل على مـستوى قوة الشعور، حين سارع بوضع ظهر كفيه فوق المائدة مواصلاً البكاء مما أثار ذهولى فقلت له:

ـ حليم صادق يبكى لأجل ترقية؟!.. هذه أكذوبة كبرى.

ـ أنا أبكى على أمى.. كراهية هذا الزميل ذكرتنى بحبها فافتقدتها.

ـ رحمها الله، لم تنل إلا القليل من اهتمامك فى حياتها.

ـ كانت طباعنا على النقيض وكنت أتخيل أحيانا رغم شدة حبى لها

أنها إنسانة بلا قلب.

- لأنك رومانسى حالم وأمك لم تكن تزيد شيئًا عن أية امرأة واقعية طحنتها تجارب الحياة.. وحبها لك كان عظيمًا ولكنك لم تعشه معها.

- لم أنتبه لذلك من قبل.

- وهل هناك رجل بحاجة إلى تنبيه من أحد كى يحب أمه أكثر ويهتم بها أكثر؟!

لم أجد وسيلة أخلصه بها من حالته سوى انتزاعه عنوة والانطلاق بالعربة إلى البحر.. هناك فاجأته بتصرف من تصرفاتى التى يعشقها بينما يصفها بالجنون وهو سعيد بها غاية السعادة.. إذ خلعت ملابسى وهو يحملق فىَّ ذاهلاً حتى يكتشف من تحتها «المايوه».. وإذا بى أجرى إلى البحر ملقية بنفسى فى مياهه الصافية، وضحكاتى تجلجل فى الفضاء، ثم عدت مسرعة إليه أجرّه جراً بملابسه كاملة حتى كاد يتوسل إلىّ أن أدع له فرصة يخلع فيها ملابسه الخارجية أو حذاءه على الأقل، لأنه لم يستعد نهائيًا لهذه المفاجأة.. لكننى لم أعبأ به.. وبعد دقائق كان يحتضننى بين الأمواج الهادئة وهو يقهقه بسعادة من القلب وهو الذى كان يبكى بحرقة منذ قليل.. قال لى محاولاً أن تتماسك أنفاسه:

- إنى مازلت أعجب للتوافق الغريب الذى ظل يجمع حياة أبى بأمى مع أنهما كانا نقيضين فى كل شىء.

- لا تعجب فعندى التفسير القاطع.

- ما هو؟

- التكامل بين الأب الحالم المطمئن بالتوكل على الله والأم الواقعية ابنة الحياة الدنيا، هو الذى أوجد هذا التوافق.

- يالك من فلتة عبقرية فى عالم النفوس البشرية.

وعدنا إلى البيت وقد تركنا على الشاطئ همًا ثقيلاً وفردة حذاء مفقودة ولحظات من الفرح الإنسانى الذائب فى وجد الوجود ●

(٨)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٢

ما أن رأيته حتى تذكرته على الفور.. حليم صادق، الطالب الوحيد الذى لم يتأثر يومًا بموجاتى الجاذبة الطاردة التى تحيطنى بهالة مكهربة من الرهبة والرغبة تصعق كل من يجرؤ على الاقتراب. ما من طالب تحاورت معه إلا وقرأت فى عينيه اهتزازًا فى ثقته بنفسه أمامى بصورة أو بأخرى. كان بعضهم يتصور أو يريدنى أن أتصور أنه يعاملنى معاملة الملائكة وهو يعلم أنه غير صادق مع نفسه أو معى، لكنه لا يعرف البديل.. وكان البعض الآخر يتحاشانى إيثارًا للسلامة من خطر غامض ليس له وجود إلا فى ذهنه الضعيف.

أما الأساتذة فكانوا - بلا استثناء - يضمرون نحوى نفورًا داخليًا تستره ابتسامات المجاملة وتحيات الصباح. والحق أننى لم أكن أبادلهم فى قرارتى نفس الشعور وإنما كنت محايدة تمامًا، بل إننى لم أكن أشعر فى بعض الأحيان بوجودهم فى القسم، فيما عدا الدكتور ميخائيل الذى كان لى بمثابة الأب الروحى الذى يذكرنى على الدوام بأبى الراحل حتى لحق به فجأة هو الآخر فلم يبق لى صديق.

لا أستطيع أن أنكر أن شيئًا ما قد اهتز بداخلى حين رأيت حليم صادق للوهلة الأولى. وفى لمح البصر عبرت سنواتى الثلاث والخمسون أمام عينى.. الابنة الوحيدة المدللة التى تطلب فتجاب وتبتسم فيقهقه القمر وتبكى فيخسف وتنام فيسكن الليل وتصحو فتشرق الشمس. الطالبة الوحيدة فى قسم الآثار وقد أنشئ لأول مرة بكلية الآداب. أجمل جميلات الجامعة بغير اشتراك فى مسابقة أو دخول فى منافسة

معلنة أو خفية، ثم كانت مواصفاتي لشريك العمر محددة تحديداً قاطعًا: أن يكون شكله مقبولاً ومركزه الاجتماعي مرموقًا وحالته المادية ميسرة تمامًا، ولابد أن يكبرني في السن بعدة سنوات.. ذلك أنني أحب أن أبقى مدللة حتى نهاية العمر.

حين بلغت الثالثة والعشرين - أي عقب تخرجي مباشرة - انطبقت المواصفات على الدكتور وفيق جرجس الأستاذ المساعد بكلية الطب وكان عمره اثنين وثلاثين عامًا ولديه عيادة خاصة.

يعيش معي منذ ثلث قرن من الزمان كزوج وأب، لكنني لم أستطع كما لم أرغب في اكتساب صداقته، كما كان من المستحيل أن أحبه بعد ليلة الزفاف، فضلا عن أنه كثير الكلام فيما لا يجدي ولا يفيد.

الحب حالة لم أعرفها في حياتي حتى اليوم لا مع رجل ولا مع امرأة، ومن الطبيعي أنه لم يتبق لي من العمر وقت لأعرفها وأتذوق ما يقال عن حلاوتها ومرارتها وعذوبتها.

وبقدر كراهيتي للأسئلة التي تحوم حول ذاتي كنت أترقب الأسئلة من حليم، وأضغط على نفسي فأجيب.. أحاول للمرة الأولى وربما الأخيرة في حياتي أن أغير من نفسي قبل فوات الوقت.

- لماذا تركت الجامعة؟

- سألتني وأجبتك من قبل.

- لم أقنع بالإجابة. لابد أن هناك سببًا آخر.

- ......!!

- هل لي أن أعرفه؟

- قد أصارحك به يومًا.

١٩٨٨

لن أنسى ما حييت ولن تنتزع قوة على الأرض غصته من قلبي. دانيال. أخي الوحيد. قتله المجرمون الملتحون داخل صيدليته ونهبوا

خزانته تحت راية الإسلام. كيف أذهب إلى جامعة تنتمى إلى هؤلاء القوم فأحاضرهم فيها وأبذل لهم العلم والمعرفة؟.. بعد ذلك مباشرة كانت المكافأة أن تخطونى فى ترقيتى للأستاذية ووضعوا بينى وبينها سدًا قانونيًا منيعًا لسنوات عديدة، وكان هذا التخطى للمرة الثالثة.

قرأت الفرحة العارمة والشماتة الطاغية فى عيون زملائى الأساتذة، وتساءلت أى وطن هذا الذى لا أستطيع الحصول فيه على حقى دون أن أريق ماء وجهى أو أبذل آدميتى أو أترك الذئاب الجائعة تمرغ رءوسها القذرة فى صدرى؟.. دلنى أيها الرب ماذا أفعل حتى لا أهزم أمام هؤلاء الظالمين، أو دعنى أتصرف حسبما أشاء.

حطمت السد وخرقت القانون الذى وضعوه فى نصف ساعة على فراش «حسن شحته» الكلب الذى كان القرار بيده. تحملت ضغط كرشه الثقيل يسحق كيانى ويفتته فى الظلام، ثم جريت إلى الحمام كى أتقيأ ولكن دون أن تسقط من عينى دمعة واحدة.

لم تغلق جفونى طوال الليل. كانت أشواك صدره العريض المشعر تشك صدرى كإبر حادة ساخنة لدرجة الاحمرار وكان جسده المربع كجسد خنزير نتن الرائحة يقبع فوق جسدى ويمزقه بشراسة من لم يضاجع امرأة متحضرة فى حياته.. كان لعابه يسيل على وجهى وأنفاسه الكريهة اللاهثة تتلاحق فى تتابع محموم. لكن ما آلمنى حقًا وسوف يظل يؤلمنى مدى الحياة هو أننى فى اللحظات الأخيرة انصهرت فى نيرانه بعنف تجاوز عنفه وأنا أنعته بأبشع السباب تنفيسًا ضعيفًا عن شعورى بالإذلال والمهانة والظلم والقهر.

فى صباح اليوم التالى حصلت على الأستاذية مصحوبة بقرار بالموافقة على سفرى فى بعثة جديدة إلى أمريكا للمرة الرابعة.

* * *

(٩)

جولييت مقار

١٩٨٨

يا حبيبى.. كنت تقول لى إن الأقباط وقفوا مع إخوانهم المسلمين ضد الغزاة المسيحيين على مدى التاريخ.. وأيام سعد زغلول كان الأقباط يقفون مع المسلمين يداً واحدة ضد المحتلين الإنجليز المسيحيين.. ترى ألهذا قتلوك يا ولدى؟.. لا لن يكون صبرى على فراقك أعظم من شكرى لإعطائى الرب إياك.. وماذا بيدى أن أصنع وقد استرد منى وديعته؟

يا دانيال.. ألم تكن أنت الذى تستشهد بآياتهم القرآنية القائلة: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَا نصارى»، لتدلل على أن النصارى ليسوا مشركين من آيات قرآنهم نفسه؟!.. ترى ألهذا قتلوك لأنهم رأوا فيك مشركًا؟!

يا بركة الرب اسكنى قبره. للمسيح أودعته. ترك العالم ليربح المسيح أعظم نصيب. عزائى فى الفردوس يا بنى وليس فى شىء آخر. لا تخف من ظلمة القبر فالمسيح سوف ينيرها لك فأنت شهيد الغدر والتخلف. إنى مازلت أرى وجهك الحبيب على وجوه كل شاب قبطى أراه عابرًا الطريق، وتلك مرارة لم أذقها قبل اغتيالك الخسيس، ولم أعرف لها معنى، فقد كان الشاب فى عينى - من قبل - شابًا لا يعنينى إلى أية دار عبادة يتجه أو إلى أى دين ينتمى.

فى أسيوط وأنا طفلة رأيت صبيًا مسلمًا يصيح بأبى فى تلقائية:

- أشمل.

فغير أبي اتجاهه إلى اليسار امتثالاً لدعابة الصبي. ولما سألته عن القصة أخبرني أنها ليست دعابة، فاليمين للمسلم والشمال للنصراني.. بل إن من حق المسلم أن ينزله عن حماره ولو مر به أمامه فيترجل بجوار الحمار حتى يبتعد ثم يعود فيركبه.. كنت تضحك يا دانيال حين كنت أروى لك تلك الذكريات وتقول لى بوداعة اليمام:

- هذا كان أيام زمان. الدنيا تغيرت اليوم يا أمي.

نعم.. إنها تغيرت.. ولهذا قتلوك.

وداعًا يا بني حتى ألحق بروحك الطاهرة في الأمجاد السماوية. استوطنت عند الرب فاذكرنا أنا ومريم وروح عبدالشهيد بالعرش وصل لأجلنا فنحن في مسيس الحاجة إلى صلواتك المباركة.

في شرخ صباك في شروق عمرك في تفتح زهر قلبك خطفوك مني فما عدت أصلح للعيش.. وهل تصلح الأبدان بغير قلوب؟

- تعالي يا مريم.. واكتبي ما أمليه عليك.

- ماذا أكتب يا أمي ولمن؟

- اكتبي لولي أمرنا في الأرض التي نفترشها.. اكتبي لرئيس الجمهورية.

- وبماذا تفيد الكتابة؟

- أريد أن أحذره بشدة فقد تتحول مصر إلى لبنان ثانية.

- الرجل حزين مثلنا يا أمي وبعث بأكثر من مندوب للعزاء، وقداسة البابا نفسه شرفنا بحضوره.

- ولكن لابد أن نفعل شيئًا.

- اسمعي يا أمي.. أريد أن أسألك سؤالاً محددًا.. هل تكرهين المسلمين؟

- أقسم بالسيد المسيح أنني لم أكرههم إلا بعد أن قتلوا وحيدي.

ـ وكيف كان شعورك ناحيتهم قبل مقتله؟

ـ لا أكثر من المعاملة الدنيوية بمشاعر محايدة.. وحتى إن احتوتها بعض الغيرة فإنها لم تعرف الحقد أبدًا.

ـ يا أمي أنت تختلفين كثيرًا عن دانيال، وأنا أختلف عنكما معًا، لكنك لا تعرفين كيف تعبرين عن حقيقة مشاعرك.

ـ هل ستفعلين شيئًا لأجل دانيال؟

ـ أعدك يا أمي.

وارتمت كل منا على صدر الأخرى ●

(١٠)

حليم صادق

١٩٩٢

حين تمكنت من النوم رأيت مريم قد عادت إلى الجامعة مرة أخرى وتركت المتحف، ورأيت نفسى أجوب شوارع الإسكندرية منذ ثلاثة وعشرين يومًا، باحثًا بين تماثيلها وقصورها وحماماتها ومكتباتها وحدائقها ومعابدها عن مريم. كانت الميادين خالية من الفرق الموسيقية ولم أر عصافير تغنى على الأشجار.. وبينما أطوى الطريق المظلم مسترشداً بهمسات الليل العاشقة أتانى الهاتف فى نوبة من نوباته المتعاقبة، وكان إشفاق ربة القمر علىّ عظيمًا حين أنذرتنى بالويل لأننى لم أكن أعرف ماذا أريد أو إلى أين أذهب، ولماذا أبحث عن مريم بهذه الحرقة.

فى قلب النوبة كنت آمونيًا فصرت آتونيًا ثم عدت آمونيًا فصرت مسيحيًا ثم أسلمت، وكنت هيروغليفيًا فتحولت إلى قبطى فعربى، ويعلم الله ماذا ستكون لغتى بعد مئات السنين، فالغزو غيّر دينى ولغتى، والزمن يغير الغزو، والقلب يغيره الزمن وسبحان مقلب القلوب.

فى الصباح وقفت خلف نافذتى متحرراً من رغبتى فى تسلق النخلة الطويلة ذات العناقيد المثمرة، ومن تغير لغتى ودينى عدة مرات، هامت من حولى أرواح الموتى من مختلف الأزمنة والأمكنة والملل والنحل، وكأنما أصبحت فى مأمن من صيحات الهاتف وهمساته، أنتظر ظهور مريم لألوح لها بيدى فترد التحية باتزان لا يخلو من دهشة، وعندما

تعود إلى مكتبها أتعلل بالأسباب كى أتبادل معها حديثًا تليفونيًا يبدو عابراً غير مقصود لذاته.

فى صوتها بحة حنان ونبرة شهامة، نبرات لم تألفها أذنى فى مخلوق من قبل.. توحى بالحياد، فلا هى ممتنة لتكرار اتصالى بها ولا هى رافضة، وهى لا توحى بآية واحدة من آيات الفضول لمعرفة سر اهتمامى بها.

دهشت من نفسى وكنت أحسب أننى فقدت القدرة على الدهشة، فاعترتنى لحظة سعادة مباغتة مكنتنى من الثورة على طمأنينتى المستكينة، فانتفض القلب وتغنى بنشيد الفرحة. لكنها لم تكن كشأن معظم الثورات صاخبة عنيفة حمراء، وإنما هى ثورة متسللة هادئة بطيئة وعميقة.. تعزف عليها روحى أنغاماً جديدة ترق وتسمو وتتواثب فى صعود وهبوط وقد غمرها النور بنفحات علوية مبهرة.

عندما أتانى صوتها تنبهت إلى أن الساعة تقترب من موعد انتهاء يوم العمل الممل.. ولأول مرة تطلبنى على التليفون.

- لماذا لم نسمع صوتك منذ أيام عديدة؟
- دكتورة مريم؟
- هل نسيت صوتى؟
- يبدو متغيراً.. هل أصبت بالإنفلونزا؟
- فعلاً.
- أصبح صوتك ساحراً بازدياد بحته قوة.
- أنت غريب.. أيعجبك هذا الصوت المشوه؟
- التشويه فى الفن هو سر الجمال الحقيقى.

نسمة كالأمنية رفت فى قلبى فعاد بنبضاته إلى برعم تتفتح أوراقه للمرة الأولى، فما انجذابى وما أنغامى وما قلقى إن لم يكونوا آيات الخوف من ارتجاف القلب بين أصابع الزمن؟!

إلى هنا وقد وصلت إلى حد من الحيرة يدفعنى إلى البحث عمن ألقى عليه بما ينوء به صدرى، علنى أكون واهماً اختلطت عليه ملالة الواقع بجلال الحلم، ولم أجد غير سمير زخارى والدكتورة مدينة كى أكتب لهما فى مهجرهما بأمريكا عن ذلك الصليل الذى يطن فى أذنى ليل نهار منذراً بوقوعى فى بئر ليس له قرار.. بل إن هناك صليل إنذار يجلجل صداه الآن فى أرجاء البلاد الطيبة التى لم تعرف الغدر والجبن فى طباع أبنائها. هاهم يمزقون جسد الدكتور فرج فودة برشاشاتهم أمام باب مكتبه وعلى مرأى من ابنه الصغير لأنه تجرأ فطالب الدولة بإصدار قانون لمحاربة الإرهاب، ولأنه عارض بقلمه ما يدعون إليه من أفكار مبهمة وشعارات مجردة يستترون وراءها ليقفزوا إلى كراسى السلطة. يقتلون الرجل الذى يرفض الخلط بين الإسلام وتاريخ المسلمين فيستنكر بالمنطق العقلانى أن يحتسب مجون الخليفة الإسلامى الوليد بن يزيد الأموى وفسقه وفجوره على الإسلام، بينما يمجدون آخر يقول إن الإسلام يحرم المودة بين المسلم والمسيحى.

ويعترف القاتل بأن التعليمات العُليا بإباحة دم الدكتور فرج فودة صادرة من الدكتور عمر عبدالرحمن زعيم تنظيم الجهاد الذى أقام بعد ذلك فى أمريكا معززاً مكرماً، ويصرح بأن الدكتور فرج فودة عميل للمسيحيين لأنه يرفع شعار: الله أكبر، الله محبة، ويقبض منهم راتباً شهرياً وينفذ سياسة أمريكا.. ولما سُئل عن هذه السياسة ومضمونها أجاب:

- لست أعرف.

ونقرأ كل يوم فى جرائدنا أن أكثر من دولة عربية - لا أوربية ولا أمريكية - تؤوى هذه الجماعات وتدعم معسكراتهم التدريبية على القتل وسفك دماء المدنيين الأبرياء ●

(١١)

سمير زخارى

١٩٩٢

يتمتع معظمنا نحن الأقباط بسلبية لا نظير لها فى بلادنا. نتقوقع على أنفسنا دون أن ننتزع حقنا المشروع فى المشاركة الإيجابية بإدارة شئون الحياة، متعللين بأننا أقلية مضطهدون ونحن أصل مصر من قبل أن نرحب بغزو العرب المسلمين لينقذونا من عذاب الوثنيين الرومان. إننا متواجدون: فقراء وأغنياء جهلة ومتعلمين، فى مصر مع المسلمين فى كل زمان و مكان، والأنف القبطى لا يختلف عن الأنف المسلم وكذلك مؤخرات نساء المسلمين والأقباط.. وفى النهاية نهاجر بحثًا عن المال ثم نبكى مصر فى الخارج ونكتشف أننا نحبها وأن روحها تسرى فى دمائنا بعد أن نكون قد بلغنا سن ارتقاب الموت.

هأنذا أجتر آلامى على زورق بخارى كبير فى رحلة بحرية بنهر المسيسيبى وقد تجرعت الآن ما يقرب من ثلثى زجاجة الويسكى، بعد أن علمت من رسالة صديقى المعتوه حليم صادق أن الإرهابيين المصريين قتلوا صديقى وزميلى فى الدراسة الثانوية فرج فودة ليلة وقفة عيد الأضحى وأنهم يواصلون حملات القتل ضد الأقباط أحيانًا وضد الأقباط والمسلمين أحيانًا أخرى بلا تفرقة.

أتجرع الخمر على نهر المسيسيبى والقلب يبكى على فراق النيل الحبيب، وحين عدت لأراه مرة وأشرب من مائه الريان وجدته يتجرع غصة النكسة ويفيض على أرض الوادى بالحزن والمرارة والأسى. لكنى

كنت واثقًا أن أيام حزنه لن تطول فأنا أعرف وطني جيداً.. سنوات قليلة يا حليم وأبعث إليك ببرقية تهنئة بعودة جيشنا إلى سيناء وانتزاعها من أصحاب البروتوكولات الدنيئة.

لم أمكث سوى أيام قليلة صرت من بعدها أكثر ضياعًا وألمًا وندمًا على حياة فرطت فيها دون أن أدرى، وكأننى ما قدمت إلى مصر إلا لأقول لمعارفي وأحبائى هأنذا سمير زخارى قد تمكنت فى أمريكا من النجاح والثراء، وعلمت أولادى فى أرقى مدارس العالم وجامعاتها ثم أعود لأعيش مغموراً من جديد بين الأمريكيين غريبًا عليهم مغترباً عنهم، فماذا كسبت من وراء علم بنى وطنى بذلك، ومن منهم سيذكرنى بعد صعودى سلم الطائرة العائدة إلى المهجر، ومن منهم سوف يهتم ولو قليلاً بانتصاراتى المزعومة التى لا تهم أحداً فى هذا الكون؟!

لقد بلغ شعورى بالبؤس والضياع ذروته حين اصطحبت امرأة لا أعرفها إلى أحد فنادق القاهرة وأمضيت معها ليلة عابثة عسى أن تعرف البهجة طريقها إلى قلبى على أرض الوطن، فما جنيت غير الألم والندم والحرمان.

عرفت فيما بعد معنى أن يسرق منى كل هذا العمر دون أن تبادلنى الحب امرأة لشخصى لا لأنى أعيش معها كزوج وأب لأبنائها. كل ما حصدته من سنواتى مجرد آلاف من الدولارات. أوراق خضراء مطبوعة.. طظ!.. كنت أتمنى أن أحسد حليم على ذلك الفيض المتدفق من العاطفة تجاه امرأة، ولكن صدمتى فى خيبته وجنونه كانت شديدة حين فوجئت بأنه ترك نساء الدنيا بأسرها من مسلمات ومسيحيات ويهوديات وأحب من بينهن تلك الشمطاء الخبيثة التى مازلت أذكر نظراتها الثعلبية الملتوية منذ أيام الجامعة فى غير ارتياح.

إن القاعدة الجوهرية ـ عندى ـ لانحراف رجل متزوج وهو يطرق

أبواب عقده الخامس تقوم دائمًا على علاقة بامرأة صغيرة السن بزعم تجديد الشباب والحيوية والتخلص من ملالة الحياة الأسرية الرتيبة وقيودها الجهنمية، وما شابه ذلك من تبريرات مكررة للفسق، لكن يبدو أنه مازال أسير عقدة أوديب إذ يفضل مريم على نساء العالمين وقد بلغت من العمر أرذله، وإذا بنبوءتى تصدق، وبدلاً من أن ينعم بفردوس الشباب ويرتوى من رحيق زهره النضير، فإنه يلقى بنفسه فى بئر عميق جاف تجوس فيه العقارب والأفاعى، وقد يكون أسير عقدة أخرى لا أعرفها من تلك التى غالبًا ما تنتهى بكلمة «مانيا» أو «فوبيا» أو ما شابه ذلك من مصطلحات لم أعد أذكرها.

المهم أنه مريض نفسيًا بلا جدال، وإلا ما انجذب إلى تلك المرأة الجدباء انجذاب المسحور وقد سلبته حوله وقوته.. وإن لم يكن به مرض نفسى فمن المؤكد أن به شيئًا غير طبيعى فى مكنوناته الذهنية والوجدانية.إنى أتخيله الآن وقد انفرد بمحبوبته العجوز المتصابية الغارقة فى العطور والأصباغ فى عش الغرام السعيد ليمارس معها الحب فتفلت منى الضحكات وينسكب الخمر على صدرى.. جلد غليظ مكرمش - تفحصته جيداً خلال لقائنا الأخير فى أمريكا - وشعر عجوز نابت فى مواقع مميزة كالذقن وداخل الأذن وفوق أرنبة الأنف والشفة العليا.. وباروكة شعر كستنائية باهظة السعر اشترتها أمامى من أمريكا ووضعتها على رأسها بعد أن حلقت شعرها حتى منبته على الجلد.. يحسبها الرجال السذج من أمثاله شعراً طبيعيًا تكتب عنه الأشعار وتتغنى بكستنائيته ونعومته وتموجاته الكلمات العاشقة.. هذا إن اقتصر خيالى على الوجه، ناهيك عن الثنيات الجلدية والعروق النافرة والعظام البارزة والساقين المشعرتين، عليك اللعنة أيها المخبول، فرغم خيالى الواسع وحزنى السعيد العائم على أمواج المسيسيبى الساكنة بفعل ما احتسيته من خمر، إلا أننى لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن

أن تمنحك تلك المرأة مهزلة الحب فعلاً أو قولاً.. لا شك أنك جننت.. حتى صوتها أيها الغبى.. ماذا تحب فيه وكيف تستسيغ سماع أسطوانة مشروخة دون أن تتأذى أذناك؟.. ألم يلفت نظرك أنه صوت رجل أدمن الحشيش منذ ثلاثة عقود على الأقل؟!

لابد أنك عميت إذ لم تر تلك الغلظة الشديدة فى رقبتها وقد رسمت عليها الخلايا الجلدية العتيقة مربعات ومستطيلات بارزة الحدود والمنحنيات، تتخلل خيوط العرق ثناياها الداكنة التى لم تطلها المساحيق.. ألم تر ذلك اللغد السميك المتدلى فى غباء بين تفاحة آدم وأسفل فكها الذكورى العريض؟!..

.. وتحبها يا حليم؟!!..

لقد أنهيت الزجاجة بكاملها ولم يعد بوسعى أن أفكر فيك وفى حبيبتك الشمطاء أيها المجنون، ولسوف أكتب إليك بعد عودتى إلى المنزل عندما أعود إلى كامل وعيى ●

(١٢)

حليم صادق

١٩٩٢

تألمت كثيراً بعد قراءتي لرسالة سمير . إنه مسكين أمضى عمره في ظلمات المادة فلم يعرف أنوار الروح . . أما رسالته فلن أقرأها مرة ثانية .

غابت مريم مع فوج دبلوماسي في زيارة أثرية . كانت حديقة الموتى خالية إلا من الحارس الكسول ، وتلبدت السماء بغيوم حزينة . أمسكت بكتاب للدكتورة مدينة أغوص فيه هرباً من الغوص في نفسي . تفكرت في كلماتها المكررة عن «جمود الفكر العربي والتصاقه بالثوابت وعجزه عن مسايرة المتغيرات العالمية وخلطه بين المطلق والنسبي أو القلب والعقل والدين والسياسة» . . فقلت مالي بهذا كله والسيل قادم أمام عيني أراه وأسمع صوت هديره المخيف . ولما اعتادت قدماي زيارة الطبيب بدأت أفكر في الموت ، ولكنني لم أبال به .

السيل قادم أراه وأسمع هديره ولا أفكر في الهروب منه بل أفكر في الاستسلام له . ولما نظرت إلى عضلاتي وجدتها آخذة في الانكماش والتراخي بلا خط مأمول للرجعة ، ولما فتحت فمي وجدت عدداً من الأضراس قد نزع وترك مكانه خالياً لوظيفة ثقافية لم تعد تعني عندي شيئاً - في مجتمع لا يعبأ بها - إذا ما قيست بطموحاتي القديمة وأحلامي الراحلة .

لما جاءت مريم خرجت من خلوتي ودخلت في نفسي فوجدتني في بئر عميق بإرادتي ثم رحت أحلم بحبل يلقيه إليّ أحد السيّارة حتى

أعود إلى زوجتي عايدة. في البئر كان نبيذ معتق. تجرعت منه حتى الثمالة واستغفرت الله متأملاً الحكمة من زواجي المبكر بفتاة تكبرني بعامين فلم أهتد إلى شيء، لكني استمعت إلى نشيد تغنيه مريم خارج البئر «أخبرني يا من تحبه نفسي أين ترعى، أين تربض عند الظهيرة».. وتعجبت مما سمعت وناديتها فلم تسمعني فتعجبت ثانية لأنها كانت تراني، ولكن بم يفيد العجب وكل شيء على هذه الأرض قابل للاعتياد مهما بدا في أوله مبهراً أو لا معقولاً.

١٩٧٠

بعد التخرج حذرني عمي جبريل من الزواج بعايدة وقد أشفق عليَّ من شدة هيامي بها. قال إنني حين أبلغ الأربعين سأكون في عنفوان شبابي بينما تبدأ هي في الذبول. نظرت متعجباً إلى زوجته القصيرة العجفاء والتي رأى بحنكته أنها أنسب الزوجات على الأرض لنظريته في الزواج، ولم أعر قوله أدنى اهتمام حتى بدا وكأنه يخاطب كائناً آخر غير مرئي يشغل حيزاً وجودياً في المكان.

أما في حفل خطوبتنا فقال لي واحد من عجائز الأسرة هامساً في أذني بسخرية خبيثة:

ـ يابني.. إن عظمك مازال طرياً عليها.

ولقد كرهته منذ تلك اللحظة وأسقطته من ذاكرتي، لكني عدت فتذكرته هو وعمي جبريل الغبي ليلة الزفاف، حين اختليت بعايدة لأول مرة ونحن متجهان إلى غرفة النوم، فكرت أن أحملها على يدي مثلما أرى في الأفلام وأقبلها على جبينها وأهمس في أذنيها بكلمات عن الحب والشوق والغرام في ليلة العمر التي لا تتكرر.

مازلت أتساءل حتى اليوم لماذا لم أفعل؟!..

ولقد بلغ بى تساؤلى ذات يوم ذروته فى أحد ميادين جوتنبرج حين وجدت نفسى أحمل «كارينا» على يدى وأجرى بها من أول الرصيف إلى آخره وهى تصرخ فى نشوة صبيانية رائعة وأنا أقهقه فى رزانة سخيفة لم تخل من بقايا بهجة جنونية رغم مضى عشر سنوات على زواجى من عايدة.

كنت على مشارف الأربعين، أما كارينا الحسناء ذات البسمة الباسمة فقد كانت فى الخامسة والعشرين. هكذا كنا: ذكراً وأنثى. رجلاً وامرأة. شىء غامض مشع. شعور رائع ومثير، يؤكد أن لنداء الطبيعة استجابة فطرية لا تستدعى التفكر والتأمل، وليست بحاجة إلى البحث عن إجابة لتساؤلات عن فعل طبيعى يحدث من تلقاء نفسه، فإنما هو قانون كونى يكتسح بقوته كل ما يشيده العقل من سدود.

كنت أسمع نبضات قلبها وهى تقول لى بانفعال:

- إنى أريد رجلاً يكبرنى ويفوقنى فى كل شىء حتى أشعر أننى أنثاه!

وأفتح على نفسى باب الجحيم فأشرد فى المقارنة وهى تواصل حديثها:

- ولو لم أتعلم منه وأحتمى به وأتدلل عليه، لما تحققت المعادلة الصحيحة للعلاقة بين رجل وامرأة.

فتاة أوربية فى الخامسة والعشرين تعبر عن فطرتها بيسر قد يعجز عنه أبلغ الفصحاء.. وكثيراً ما تقول لى عايدة:

- أنت لا تدللنى أبداً.

وأريد أن أقول لها إن هذه المسألة قد شغلتنى طويلاً، وأننى كلما اقتربت من المحاولة سارعت إلى التراجع عنها حتى لا آتى بفعل ماسخ يخلو من الصدق ولا ينبع من دافع فطرى أصيل.. فالذى يدلل هو

الأكبر، ولأن الكذب أعدى أعدائى فى الحياة فلن أكذب أبداً على نفسى أو عليها.

- وكيف أدللك؟

- قل لى مثلاً يا عايودتى.. يا دلوعتى.. أى حاجة غير عايدة.

ولكن لسانى يعجز عن القول.

١٩٩٢

لما جاءت مريم جاءنى معها الهاتف الذى دفعنى إليها يحذرنى بشدة من التمادى فيما أنا مقبل عليه من حمق. لماذا يباعدنى الآن عنها وهو الذى زين لى القرب؟ لماذا يؤكد لى الآن أننى محسود على حياتى المستقرة الهانئة فى كنف زوجة جميلة محبة وابن رائع وابنة أكثر روعة وجمالاً، والاثنان ناجحان متألقان.. محسود أنا على ما يسمونه وظيفتى المرموقة وعلى مجموعتى النادرة من صفوة الأصدقاء. منحنى الهاتف مهلة - لم يحدد مداها - إما أن أتخذ خلالها قرارى بوضوح تجاه مريم وإما أن أمتنع من بعدها عن الاقتراب من عالمها أو الحديث معها أو عنها، ذلك إن كنت أرغب العيش فى سلام.

١٩٩٤

ليتنى اخترت السلام.. ولكن من يجرؤ على الادعاء بأنه لا يختار دائماً إلا ما يريد؟ ●

(١٣)

سمير زخاري

١٩٩٢

خذ عندك يا صديقى الحالم السعيد:

فى إحدى زياراتها العديدة لأمريكا جاءتنى مريم منذ حوالى أربع سنوات فى مقر عملى بالجريدة تدعونى لحضور اجتماع دينى تعقده رابطة مجهولة الأصل لمناصرة أقباط مصر. فى البداية رفضت الحضور من حيث المبدأ، فمسيحيو أمريكا ويهودهم لن يستطيعوا أن يقدموا شيئا لأقباط مصر سوى المزيد من إشعال نار الفتنة وإثارة الضغينة والبغضاء بين المسلمين والمسيحيين.. والنغمة السائدة الآن أنه بعد اقتراب سقوط الشيوعية فلسوف يكون الإسلام هو العدو الأول لعالم الغرب المتقدم. لكنى حضرت الاجتماع بدافع من فضول الصحافى النشط الذى يدمن تجميع الأخبار وتحليلها.

فوجئت بها تروى للحاضرين بعيون دامعة كيف هجم الإرهابيون على صيدلية شقيقها دانيال بحجة الثأر لمقتل زميل لهم بواسطة البوليس، وبعد أن قتلوه هجموا على المحلات المجاورة - ومعظم أصحابها أقباط - فقتلوا منهم خمسة وكسروا أرجل سبعة آخرين ثم أشعلوا النيران فى محلاتهم التى يرتزقون منها بعد أن نهبوا خزائنها.

أصابتنى دهشة شديدة فدانيال مستقر بالقاهرة حسب قولك لى فى إحدى رسائلك، أما الحادثة التى أشارت إليها فقد وقعت فى الصعيد حسبما أجمعت محطات الإذاعة الأمريكية والأوربية، وتعجبت كيف

مزجت ولفقت بين الحادثتين فى أسلوب قصصى مثير حتى تستنفر مشاعر المستمعين. أما الذى أثار قرفى حقيقة فهى أنها كانت تتحدث إلى المجتمعين وكأنهم أولياء أمورنا فى مصر، وكأنهم قادرون على القضاء على الإرهاب هناك وهم العاجزون عن القضاء عليه هنا فى قلب أمريكا، بل إنهم يتبنون بعض رموزه ويدعمونهم فى بعض الأحيان - تحسبًا للمستقبل - إما تحت راية اللجوء السياسى وإما عزفًا على نغمة حقوق الإنسان.

لقد اكتفيت بالنظر إليها فى مرارة شديدة عقب الاجتماع وقلت لها:

- أحسبك ترين فى أمريكا الصدر الحنون والأم الرءوم لمصر وأقباط مصر.

أجابتنى فى وقاحة:

- أعتقد أنها لو لم تكن كذلك لما بقيت بها منذ تخرجك وحتى الآن.

- لكنهم ليسوا مصريين، ولماذا لم تذكرى لهم جرائم الاعتداءات المسلحة العشوائية على عربات الميكروباص التى تقل ركابًا مدنيين امتزجت دماؤهم البريئة داخل العربات بلا تفرقة بين دياناتهم؟

نظرت إلىَّ بجمودها الكريه وسألتنى عن وساطة تمد بها بعثتها ستة أشهر أخرى استناداً إلى نفوذى الصحافى.

- ولكنك قلت أنك ستتركين الجامعة.

- نعم وسوف أعمل وقتيًا بوزارة الثقافة بعد العودة تمهيداً لنقلة كبرى فى حياتى العملية.

- وهل أخطرت الجامعة بذلك؟

- ولماذا أخطرهم وقد جمدونى عند آخر ترقية بحيث يستحيل أن أصل إلى منصب من مناصب القمة فى الجامعة؟!

إنى أدعى يا صديقى الحليم الصادق أننى الوحيد فى الدفعة الذى نجح فى قراءة عينى مريم. إنه يا عزيزى جنون التفوق والتميز والشهوة القاتلة لبلوغ الذروة فى أى شىء وإن أمكن ففى كل شىء، لكن مأساتها

تكمن فى ثقتها الزائدة بنفسها ومحاولتها الاعتماد على ذكائها فقط لتحقيق أهدافها، وهنا يكمن التحدى فى صمتها الغامض وفى أعماق عينيها الشاردتين.

رغم ذلك فقد عقدت تعارفًا بينها وبين نائب مدير الجامعة الأمريكية المسئولة عن بعثتها وكان مصرى الأصل يدعى «على الفيتورى». قال النائب إن مدّ البعثة مستحيل بحكم لوائح الجامعة هنا، لكن هناك وسيلة أخرى هى دعوتها لتدريس الآثار بجامعتنا بشرط موافقة الجامعة المصرية، وقد ساهمت الدكتورة مدينة بجهودها فى هذه الجامعة - التى تعمل بها - لتذليل كل العقبات حتى تلبى لمريم رغبتها.

فى الليلة ذاتها اتصلت بالجامعة فى مصر وجاءها الرد بالرفض فقدمت استقالتها بلا تردد وبقيت هنا عاماً حتى استغنوا عن خدماتها، لكنها كانت قد نجحت خلال تلك الفترة فى عقد شبكة رهيبة من الاتصالات بكبار المسئولين فى أكثر من جامعة بأكثر من ولاية حيث تمكنت من البقاء ما يقرب من ثلاثة أعوام أخرى انتهت فى أوائل هذا العام.

ويوماً سألت صديقة لى تعمل بسكرتارية إحدى الجامعات عن سر تهافتهم على محاضرات مريم دون غيرها من المبعوثات. ابتسمت صديقتى فى مكر مكشوف وهى تقول:

- بغض النظر عن نفاقها السياسى فصاحبتك تمتلك سحراً من نوع خاص تعرف كيف تذلل به أية عقبة تصادفها مع الرجال.

- كيف؟.. والقوانين واللوائح.

- أى قوانين يا رجل؟!. أنتم يا أبناء الدول الفقيرة تعتقدون فى ملائكية

احترامنا للقانون.

- فما الحقيقة إذن؟

ـ الحقيقة أن الرجل هو الرجل فى كل مكان إذ يستطيع خرق القانون بأكثر من ثقب من أجل ليلة دافئة فى فراش امرأة مشتهاة.

والحق يا عزيزى حليم أنا لم أشأ أن أصدق هذه الفتاة أبداً.. وحتى لو صدقت فإنى لم ألحظ على مريم ما يدل على شبهة من هذا النوع على الإطلاق. إنى لا أحبها حقاً، ولكنى مازلت أشك حتى هذه اللحظة أنها اشترت بجسدها بضعة أعوام للتدريس فى أمريكا، أما لو كان الأمر كذلك ـ والعياذ بالله ـ فإنى أشهد لك بعبقرية وجهها الفذة فى القدرة على التمويه والإخفاء بما يعجز عنه أعتى عملاء المخابرات فى الكرة الأرضية؛ أو أعترف لك ببديل آخر وهو أننى حمار.

أنا أعلم أن كلامى لن يعجبك مثلما لا يعجب الكثير من زملائنا الأقباط الذين كانوا ينفرون منى ولا يطيقون الاستماع إلى آرائى.. نحن يا عزيزى أصحاب جذور دينية يهودية، فالعقل أساسنا مهما كانت رومانسية ديننا العظيم. وأنا حتى هذه اللحظة لست أعقل ألا يكون هناك نبى اسمه محمد ولا دين اسمه الإسلام يوازن بين مادية اليهودية وروحانية المسيحية ويزاوج بينهما بفكر واقعى يتعامل بفن وعبقرية ونجاح مع الإنسان.. فلماذا لا نعترف بهم ونديِن بديننا مثلما يعترفون بيهوديتنا ومسيحيتنا ويدينون بالإسلام؟.. إن أول قرار سأتخذه لو أسلمت وأنفذه على الفور هو الزواج من امرأة ثانية»..

لقد لفت نظرى فى خطابك تمحورك الشديد حول ذاتك كطفل أنانى عنيد، أما ذلك الصديق المفكر الذى يحارب قضيتك وقضية كل مصرى أياً كانت ديانته، وهى أهمية فصل الدين عن السياسة، فأنت لم تتكلم عنه أكثر من سبعة أسطر. لقد نجح الرجل فى اقتحام معاقلهم الفكرية الهشة المظلمة الحالكة السواد، وأراد أن يحاوروه بالكلمة فلم يجرؤوا على ذلك لأنهم على باطل.. فكر فى مصر يا حليم أكثر مما تفكر فى شهوة مريضة تكاد تسلبك العقل والحكمة ●

(١٤)

حليم صادق

١٩٩٢

مزقت رسالة سمير ثم أحرقتها.. وما أن جلست مريم أمامى حتى اندفع من فمى سيل من الكلمات لا يكاد يتوقف، جارفًا معه ثرثرتى السريعة اللاهثة المتلهفة إلى التواصل قبل انتهاء مهلة الهاتف غير المحددة والتى كنت أحسب أن موتى دونها.. وبين الحين والحين أنظر فى عينى مريم الناعستين الثاقبتين وأبتلع انطباعاتى الحائرة عن مغزى تلك النظرات الغامضة.. أهى روح قدسية شفافة تلك التى تشع من عينيها لتتبصر بها العواقب الكامنة فى أعماق الغيب فتحجم عن الاستجابة وتلتزم الصمت، أم أنها ـ وأستغفر الله ـ اشعاعات مكر الأنثى حين تترقب وتفكر وتراوغ وتناور دون أن تكشف عن حقيقتها الراغبة فى خوض نفس التجربة، أم تعنى تلك النظرات شيئًا آخر لا أدرك كنهه؟

وأواصل ثرثرتى بشبق غريب للكلام.. حتى نزواتى وسقطاتى انتزعتها مريم من بؤرة لا وعيى إلى بؤبؤى عينيها وهى تستمع بكتلة من الحواس المركزة فى عينيها ـ قادرة على احتواء أسرار الخلق أجمعين ـ إلى طقس اعتراف تفصيلى عن أغوار نفسى التى لم أنتبه إلى ما تحويه من تناقضات قبل الآن.

وتندهش عيناها حينًا فيقفز قلبى من صدرى لأنها انفعلت للحظة، وأكاد أتلقفه بيدى حتى لا يضيع منى.. وتبتسم أحيانا فأنصهر فى «كرمشات» جفونها التى برع الزمان الفنان فى رسمها بعبقرية فذة..

في هذه الخطوط الرقيقة الدقيقة المتشابكة في محبة وتناغم، عثرت على مفقودات كثيرة من عمري كنت أجهلها، ومن بين ثناياها الوديعة انبعثت أنغام حانية غمرت روحي بسكينة لم أعرفها من قبل، حتى أن الطمأنينة لم تفارقني وأنا في قاع البئر.. أريد ولا أريد أن يُلقى إليّ بحبل يلتف حول حيرتي العاشقة المعشوقة.

ظلت مريم منصتة دون أن تجود بكلمة. حائط خرساني لا أظنه يتصدع بسهولة ليكشف حطامه عن نظرة أصيلة من القلب أو حتى عن ثورة من الغضب رافضة ما يجول بخاطري من جنون أنا أجبن من البوح به حتى لنفسي.

في المساء أشفق على القدر من بطشه حين تذكرت زيارة سمير زخاري الوحيدة لمصر والتي جمعت بيننا بعد هجرته بثلاثة أعوام.

١٩٦٧

كانت قصة حبه لزميلتنا الراحلة «سهير» تروى في الجامعة كما تروى الأساطير. لكنه تزوج بغيرها بعد أن ماتت بقطعة صغيرة من الحجر ألقاها طفل يلهو بالمصادفة فارتطمت برأسها. سألته بإشفاق:

- ألم تحب زوجتك؟

قال بأسى:

- لم أحب غير سهير.

شعرت أنني نكأت جرحه القديم فالتزمت الصمت، وأطرقت مفكراً في لا شيء حتى دار بيننا الحديث حول أيام الجامعة فجاءت سيرة مريم وتعجبت من معارضته الشديدة لرغبتي في أن نزورها معاً في مكتبها بالجامعة، متعللاً بضيق الوقت الذي لن يكفي لزيارة أمه وبقية أسرته والبقاء ببيت كل منهم ليلة واحدة على الأقل ليغمس البامية والملوخية بيديه لا بشوكة وسكين، وليأكل محشي ورق العنب والكرنب وفتة الكوارع والممبار والحلبة المعقودة.

واليـوم تستـبـد بى نشوة لـم أخبـرها من قـبل، فالدهشة تعـاودنى وأحزانى تتصالح مع أفراحى.. ومشاعرى تحررت من استكانتها إلى الطمأنينة القاتلة مع أسرتى الحبيبة.. هاهو القلب يفيق من غيبوبته فأقول لنفسى مالم أقو على قوله من قبل: «إنى أحبها.. ولو كانت نهايتى على يديها فلن أعبأ بشىء»..

ولم يكن أمامى إلا أن أكتب لها ما عجزت عن قوله ●

(١٥)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٢

فتحت رسالته وقد استبد بى فضول عظيم:

العزيزة الغالية مريم:

قد فرّ منى زمن طويل فلم ألحق به. ومثلما امتنع عنى فإنه جاء يسعى إلى بقانونه الأزلى.. يقف أمامى فى صمت وما هو بواقف. أرقبه فى ذهول العائد إلى رحم أمه رغمًا عنه، فأدخل وأخرج ويروح ويجيء من حولى والخلق يهرولون فى أيامهم والشمس والقمر.. بوجدى أطير إليك فما عاد فى الوقت متسع. هيا ادخلى فى عباءتى فعندى كنز لم يمسسه من قبلك إنس ولا جان. لم أكن أدرى أننى استبقيته لأجلك كل هذا العمر. قد بددت من نفسى الكثير فى عمر الغفلة، وأما ما تبقى فهو لك، وخذى الحكمة ومعها شعرى الفضى وألقى بهما حيث شئت.. فى النهر فى صدرك. فى البحر فى قلبك. فى الجبل فى عينيك.. آه.

ولسوف أهجر أعمالى ورغباتى وأمنياتى وتطلعاتى وأصدقائى وأعدائى ونزواتى وشهواتى وخيرى وشرى كى آتى إليك طفلاً مغسولاً بالانبهار مطهرًا بالبراءة.. هيا ادخلى فى عباءتى فعندى لك دفء مقدس يترفع فى جلال عن الخطيئة. دفء طالما احتفظت به قبل أن أعرف أنك ستجيئين يومًا إلى زمانى وقد نفضت عنه غبار السكينة القاتلة. إياك أن تدق أجراسك أيها الهاتف إلا مؤذنًا باللقاء.. ولتتوهج يا قلب بنار حبك الأخير. هيا ادخلى فى عباءتى فقد كنت ضنينًا

بظلها على غيرك من قبل أن أعرف من أنت أو ما الذى جاء بك إلى أرضى وقد أنهكتها خصوبتها فبات اخضرارها داكنًا حتى السواد.

تسع وأربعون سنة. رفاق سلاح تناثرت أجساد بعضهم فى الهواء ورفاق دراسة هاجروا إلى بلاد الله مثلما هاجرت نسمة، ورفاق زمان يعيشون على مقربة منى وأراهم ولا يبصروننى وأبصرهم ولا يروننى..

سيداتى آنساتى سادتى.. مع الفرحة والمرح ولا تفكروا فيما تسمعون.. عليكم بالرقص فقط، فمن لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة، ولا يفنى فى الله من لا يعرف قوة الرقص.. هيا ادخلى فى عباءتى وشاركينى جنتى.. ولئن كان المستحيل صعبًا فليكن الصعب ممكنًا. ولئن ترددت فى الدخول فاعلمى أن تسعة وأربعين عامًا أخرى هى المحال.. وأننى سوف أحملك بين ذراعى لأخفيك تحت عباءتى من العيون وأحرسك بألف جندى من لحمى وجلدى ودمى وعصبى وعقلى وجنونى.. تحت عباءتى يقبع سر السعادة القادمة. نعم تأخرت فى العثور عليه. نعم دفعت لقاءه ما يقرب من ثمانى عشر ألف يوم من الصمت والكلام والسكوت والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح.. وكان النور أمامى فلم ألمحه.. وكان الحلم فى سراديب صدرى ولم أدركه. وكان النهار طويلاً والليل أطول فما شعرت إلا بلحظة!.. فتعالى إلى عمرى يا صاحبتى إلى السر.. الكنز فى انتظارك.

حليم صادق.

* * *

حين أطلعنى على صورة «بسمة» راعنى ذلك التشابه الشديد بين وجهى ووجهها.. مدخل ذكى عهد به لغزوى وكأنه يضعنى موضع شقيقته تبريراً لاقترابه المتزايد منى.. قتلوك يا دانيال. تصورت أننى أحببتك يا «سهل» لكنه كان حبًا لدرجة الكراهية البغيضة السوداء.. لقد ألقيت بك فى بئر الصمت العميق الذى دفنت فيه جثث الدكتور

عبدالجليل صيام وحسن شحته وعلى الفيتورى ومن قبلهم سهل عامر ووفيق جرجس، فكيف يمكن لحليم أو غيره من الرجال على وجه الأرض أن يغرينى بالكلام.. وكيف أحب خصومى وأعدائى قتلة دانيال؟!.

هنيئًا لك بهم يا دكتورة نادية، فحين يقتلون أخاك فسوف تدركين إلى أى درك انحدرت. نعم أنا أفتقد صديقة واحدة أفضى إليها بما انكوى به صدرى من آلام، لكنى قد اعتدت ذلك فلم أعد بحاجة إلى أحد. حين عذبتنى أم وفيق بتسلطها علىّ وعلى ابنها المنصاع لنزواتها وتقلباتها وغيرتها القاتلة منى، لم أجد صديقة أتنفس عندها، ولم أشأ أن أزعج أمى حتى لا تشاركنى آلامى.. رحت أسكب دموعى على الورق. أنفّس عن قهرى بالكلمات ثم أمزق ما كتبت فأرتاح ويهدأ بالى.. ظللت أكتب وأمزق حتى ماتت خصيمتى فلم أذرف عليها دمعة واحدة! بالصمت قتلتها وبالصمت تحملت قدرى مع وفيق منذ ليلتى السوداء معه. وبنفس السلاح الرهيب الذى كان يتحصن به أبى أمام سطوة أمى وشخصيتها الجارفة تلقيت نبأ مقتل الحبيب.. قتلوك ويريدنى أن أدخل فى عباءته حيث يقبع سر السعادة الدائمة.

إنه لا يعلم أن عملى بوزارة الثقافة ما هو إلا معبر قصير لعملى كمرشدة عالمية مختصة بمرافقة الرؤساء والزعماء فقط، معبر أدرس من خلاله معالمنا السياحية بدقة بالغة تمهيدًا لقفزتى التالية.

* * *

فوجئ بى أطرق باب مكتبه. يفرح لدى رؤيتى كالأطفال. أشعر رغمًا عنى أن فى ابتسامته شعاعًا من نور يضىء جانبًا مظلمًا من قلبى. غرفته أشبه بقصيدة شعر فى وصف جمال الطبيعة. أما النافذة فلوحة سماوية تطل على البحر والفضاء الأزرق، وتعلوها زهور وشجيرات صغيرة.

اقتربت من شجيرة جوافة ووقفت أتأمل فروعها الخضراء غير المثمرة. فى نبرة حزينة موحية قلت له:

ـ هذه الشجرة الصغيرة مكتوب عليها ألا تثمر .

راح يداعب أوراقها بأنامله فى رقة بالغة وتساءل مستنكراً :

ـ أكل هذه الخضرة لا تكفى ؟

لكن نموها محدود بقاع الصندوق الذى لن يسمح لجذورها بالامتداد .

ـ تكفينى بهجة اخضرارها فأنا لا أطمع فى أن أجنى منها ثماراً .

ـ لكن هذا ضد الطبيعة .

ـ معظم حياتنا ضد الطبيعة لكننا نعيشها .

ـ كيف ؟

ـ أنت مثلاً أضعت حياتك فى الزواج المبكر والإنجاب والعمل ولم تحققى لنفسك شيئًا .

تعجبت لجرأة هذا المسكين فى اقتحام حياتى ـ رغم نبرته الشديدة الحياء ـ وإعطاء نفسه الحق فى إطلاق الأحكام علىّ وكأنه عليم بباطن أمرى وظاهره . . رغم ذلك فلم أجد بنفسى رغبة فى أن أوقف اندفاعه نحو حصنى .

ـ ليس هذا حالى وحدى ، فهكذا تضيع حياتنا جميعًا ثم نمضى .

ـ لكنك اخترت زواج العقل التقليدى بمجرد تخرجك فلم تعيشى حسبما أظن تجربة حب . . وبالتالى لم تعيشى حياتك أنت .

استنفرتنى ثقته الزائدة بأحكامه القاطعة عن حياتى وكأنه يعيرنى بعجز فى ذاتى أو عاهة فى نفسى ، وكنت أرى فى عينيه إصراراً على أن أكون البادئة بالحديث عن رسالته التى يقدم لى فيها قلبه طائعًا على طبق من ذهب محاط بالورد ، وكأن الذى كتبها رجل آخر غيره لا يتمتع بتلك الثقة أو القدرة على الاقتحام الجسور . تعمدت الصمت حتى خيل إليه أننى لم أفتح رسالته . انهارت مقاومته فسألنى بدهشة :

ـ هل قرأت الرسالة ؟

حاول أن يخفى ارتباكه أمام جمودى الشديد. اعتراه خجل جميل وهو يسألنى بعد أن هززت رأسى علامة الإيجاب:

- وماذا بعد؟

- تصورت عنك أى شيء إلا أن تكون مجنونًا.

أعجبته الإجابة وذاب ارتباكه فى خجله فى طمأنينته إذ راوده الأمل فى المستحيل فعجز عن الكلام - حينذاك عاجلته بالسؤال الحاسم:

- ماذا تريد منى تمامًا؟

غلب صدقه ارتباكه وهو يقول:

- لست أريد منك شيئًا وإنما أريد لك كل الخير والسعادة.

لم أسمع فى حياتى كلامًا جميلاً من رجل صادق العينين والقلب والنبرات. انتابتنى حيرة طاغية وراح عقلى فى غيبوبة مؤقتة.

- لماذا لا تتكلمين؟

- لست أجد كلامًا أقوله.

وغادرت المكتب على الفور يطاردنى زوج وابن وحفيد ودماء شقيق تزأر بالثأر والرغبة فى الانتقام، وأعوام قاربت على الستين ونداء صارخ من القلب يتوسل إلىّ أن أعوضه عن مرارة الحرمان.

فى المساء كنت أجلس مع وفيق بالكازينو المطل على البحر نتبادل كلامًا قليلاً مكررًا بلا حماس. أستمع إليه بأذنى، أما عقلى فكان شاردًا فى رسالة حليم وإصراره على الرضا بالشجرة المورقة دون ثمار قانعًا بمنظرها الجميل، وامتناعى عن مواصلة الحوار معه، وشعوره بالطمأنينة لمجرد أننى لم أعترض على الرسالة ولم أعدها إليه مصحوبة بكلمات رفض أو تأنيب.

إن صمتى وانصرافى يؤكدان أننى راغبة فى التسليم له بما هو مقدم عليه، أو على الأقل غير رافضة لاستلام طبقه الذهبى بما عليه ولو من باب التجربة وحب الاستطلاع ●

(١٦)

حليم صادق

١٩٩٢

سلمتها رسالتي لحظة الانصراف من العمل لأقطع الطريق على نظرة دهشة أو كلمة تساؤل، ثم أمضيت دهراً في انتظار الصباح متحدياً منحنى الحياة الآخذ في الهبوط، والذى كنت على ثقة من أنه لن يحد من سرعته إلا وقوع عيني مريم على كلماتي.

فوجئت بها تطرق باب مكتبي. حاصرت فرحتي وارتباكي وخوفي ويأسي فلم أنطق حرفاً. حيتني ووقفت تتأمل الورد أمام النافذة ومصيري معلق بشفتيها اللتين قهرتا الزمن وأبقيتا دماءه القرمزية في لونهما الوردى المتفجر بالحياة. رأيت الأمل في الخطوط الرقيقة المتشابكة تحت عينيها المشعتين ببريق الشباب فهدأت ضربات قلبي قليلاً.. وكان الحصن منيعاً لا تهزه أعتى الزلازل.. طهوراً لا يعرف الدنس طريقاً إليه. أبوابه الفولاذية نظرات غامضة منذرة يعجز السحرة عن فك طلاسمها السرمدية. يعصمني من الكلام عجزى عنه ولكن متى تكف عن قسوتها الصامتة فتتكلم؟

ـ هذه الشجيرة مكتوب عليها ألا تثمر.

خيل إلى أنها تبلغني ردها الموجز على رسالتي. أصابت قلبي بطعنة لكنها لم تكن قاتلة لأني مدرك لروعة نبوءتها الحكيمة، فما الذى يرجى من علاقة تجمع ما بيننا بما يتجاوز حدود الزمالة غير حب عاجز مشوه لن يكتب له قرب ولا وصل ولا توحُّد، ولن يعرف الطمأنينة والبهجة والارتواء والنمو؟!

قلت متسائلاً وكأنى أقاتل دفاعًا عن بقية عمرى :

ـ أكل هذه الخضرة لا تكفى؟

وكأنها لم تقرأ حرفًا مما كتبت لها قالت بثقة :

ـ إن نموها محدود بقاع الصندوق الذى لن يسمح لجذورها بالامتداد . لا الدين الإسلامى ولا الدين المسيحى ولا الشرع ولا المجتمع سوف يسمح لنا أن نعيش تجربة حب معًا . اندفعت بجيوشى مسلحًا بغريزة البقاء :

ـ تكفينى بهجة اخضرارها فأنا لا أطمع فى أن تثمر أو أجنى منها الفاكهة .

كان منتهى أملى أن يفتح كل منا صدره وقلبه للآخر ، ولست أدرى لماذا أو كيف أو من أين جاء هذا الأمل ، وأنا لم أكن أشتهيها كامرأة رغم أنها لم تفقد بعد أنوثتها ، بل إنها أكثر فتنة وحيوية من حسناء على مشارف الثلاثين .

كان واضحًا أنها أحصت أسلحتى كمًا وكيفًا حين حاصرتنى بالصمت وأبقت سرها خافيًا لا تريد أن تبوح به . غادرت المكتب فجأة فاستطعت أن أتنفس فى يسر ولكنى تعجبت لماذا لم أصرح لها بأننى ـ بعد انقضاء كل هذا العمر ـ أحببتها فجأة وبقوة؟!

لم أجرؤ على رفع سماعة التليفون لأكمل معها حديثنا المبتور . خطر ببالى أن أطلب عايدة بدلاً منها لأقول لها إن المستحيل قد حدث فقد أحببت من بعدها امرأة أخرى تكبرها فى السن . . لم أجرؤ أيضًا على ذلك .

حينئذ عرفت أننى يجب أن أكذب ـ لأول مرة فى حياتى ـ وأن أتعايش مع أكذوبتى حتى النهاية ، فأخاف وأشعر بالذنب وأضعف وأتردد ويهتز احترامى لذاتى وأتألم وأحزن وأمرض ويختل توازن ملكاتى الوجدانية التى يقوم عليها عصب حياتى .

* * *

أسلمت قيادة أفكارى لقدمى فلم أشعر بغروب الشمس إلا حين وجدت نفسى جالسًا إلى مائدة بأحد الكازينوهات المطلة على البحر والذى اعتدت أن أخلو فيه إلى الطبيعة مع نفسى أحيانًا ومع صفوة أصدقائى أحيانًا أخرى.

يا إلهى!.. هاهى. ولقد رأتنى جيداً.. مريم جالسة بعيدة عنى ولكن فى نفس الحيز المكانى على أرض الله. إنى أفرح بوجودى على قيد الحياة مادام فى القلب متسع لحب الأرض والسماء والنجوم والكواكب والبشر والحيوانات والحشرات والنباتات.

مالى أتعجب لذلك الصمت الموحش بين مريم وزوجها؟ أليس هو نفس الصمت الذى طالما جمع بينى وبين عايدة منذ سنوات؟.. قبل أن أفيق من غيبوبتى كنا نجلس الساعات الطوال نتحدث حتى يفرغ الكلام فننصرف. يؤرقنى هجوم الصمت لأنى أكره الملل وأخشى مواجهته لثقتى بأنه أقوى منى وبأن هناك حقيقة تجلت تؤكد وجود ما يسمى بالحب الثانى، وأنه قادم لا محالة.

ظللت أحب عايدة ربع قرن من الزمان أو يزيد حتى أصابنا الصمت معًا فأحببت مريم الصامتة! هاهى الأخرى تدفع الصمت قربانًا لما تبقى من حياتها بعد أن عاشت عفيفة فاضلة وأخلصت لحياتها المقننة وربت بشارة وعلمته فتزوج وأنجب وابتعد وأصبحت تفتقد شيئًا حميميًا خاصًا تعيش لأجله.. حتى متعتها بحفيدها الصغير يوسف لا تتجاوز الأيام القليلة التى تراه فيها فى المناسبات.

✱ أغلب ظنى أنهما يتحدثان الآن عن درجة برودة المشروب أو عن سوء الخدمة فى المكان. تعالى إلىّ يا مريم واتركيه ولسوف نتحدث معًا حتى الصباح بلا تنفس.. كم يعذبنى ذلك الإحساس الواهم الراسخ الظالم بأن هذا الرجل قد اختطفها لنفسه فى غفلة من الزمن رغم أن قلبها لم ينبض لحظة بحبه.. ويشهد الله أننى دعوت لها فى صلاتى أن

يصونها ويحفظها من كل سوء. إني أعوذ بقدرته وعظمته أن يكون حبي لها سببًا في الألم لأى مخلوق، وأسأله أن ينعكس هذا الحب على حياتنا بفيض من نعيمه على أحبائنا الآخرين الذين أمضينا معهم كل ما انقضى من رحلة العمر. إنه عطاء مقدس من الرب يخص به عبادًا يقدّرون نعمته التى لا تحصى، فيكشف لهم عن كنوز من الرحمة لا يعرفها قساة القلوب.

إني أكاد أطير فرحًا بطمأنينتي وسعادتي ورضاى، فالخوف لا يأتي إلا مع النوايا الشريرة يا مريم، وأنا لا أرغب فيك بل أرغب لك، لا أطمع فيك بل أطمع لك. إن كبرياءك العفيف يسحرني فأعشقه وأقدسه، ولكن.. إلام الصمت يا مريم؟! ●

(١٧)

عايدة فؤاد

١٩٩٣

ليس هذا هو حليم الذى أعرفه حين يذوب فى جسدى ويتوحد معه منذ أول لقاء جسدى حميم جمع بيننا . . ولأن جديداً لم يجد على حياته العملية أو المادية - وأنا ملمة بدقائق نبضه وخلجات ضميره الطيب ونواياه البريئة - فإن هناك امرأة غيرى ولو أقسم على الكتب المقدسة جميعاً بغير ذلك .

لو أحبها حليم فسوف يخلص لها لأنه لا يعرف الكذب واللؤم والخيانة ، وهو الذى علمنى الآية الكريمة : «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» ، لكنه لن يستطيع مواجهتى بالصراحة الباردة التى يواجه بها بعض الرجال زوجاتهم حين يعترفون لهن بوقوعهم فى تجربة جديدة سواء من باب الاعتذار والندم وطلب العفو والغفران عن نزوة طارئة ، أو من باب النية المبيتة على الانفصال .

وكيف يستطيع مواجهتى بطعنة فى القلب الذى احتضنه واحتواه وأدفأه كل هذا العمر ، وكيف - أيضاً - تطاوعه روحه أن يخفى الخنجر وراء ظهره فتكون الطعنة من الخلف وهى أقسى وأبشع وأقتل ؟ . . هاهو يجلس أمامى شارداً كالطفل الذى ارتكب حماقة ويخشى أن تكتشف أمه الأمر .

إنى لا أستطيع أن أتصور حليم وهو يضم امرأة غيرى إلى صدره القوى الحنون ، فهذا هو الظلم بعينه ، وأنا لا أستحق أن يظلمنى إذ عدلت معه العمر كله .

لا أستطيع أن أتصور ذلك الامتزاج المقدس بين نفسين وقد استحال إلى شهوة داعرة لا تلبث أن تزول . . ولو كان بإمكانى لصرخت فى

وجهه بأن يسارع فى العودة إلىّ قبل أن تأخذه منى لما ترددت.

إنى واثقة أنه لن يصمد طويلاً أمامى فلماذا أضع نفسى ذلك الموضع المستجدى الضعيف؟.. وحتى يجيء الأوان فلا مفر من السعى وراء الحقيقة رغم ثقتى المفرطة فى حدسى الفطرى.

ولكن كيف أصل إلى تلك الحقيقة والنار مشتعلة فى صدرى، يحرق القلب لهيبها ويحجب العقل دخانها الأسود وتعجز مياه أنهار الدنيا وبحارها أن تطفئها؟!.. هل أتعقبه أم أستأجر شرطيًا خصوصيًا كما تفعل النساء الأوربيات؟.. يا إلهى. كيف يعقل لرجل أحب زوجته وأحبته وأنجبت له الولد والبنت وفضلته على كثير غيره وصانته فى عرضه وماله ولم تبخل عليه بعطاء، أن يوليها ظهره فجأة ليبدأ مع غيرها حياة عاطفية جديدة بكل هذه البساطة؟.. لقد أغدقت عليه بكل ما اختزنت فى روحى من طاقة على الحب والرجاء والأمل الحلو، فكنت له عشيقة وزوجة وكنت له صديقة وشقيقة، ومع هذا فقد دب الملل والفتور فى قلبه ولم يلبث أن انتقل إلى جسده. ترى ما هى مواصفات تلك المرأة التى ألحقت بحياتى هذه الهزيمة النكراء حين استطاعت إعطاءه ذلك الشيء المجهول الذى عجزت عن التوصل إلى سره وعن بذله لحبيبى عن طيب خاطر. لقد رفضت الرجل الذى تقدم للزواج منى قبل حليم لأننى رفضت فيه أبوته الزائدة بينما كنت أبحث عن حب وصداقة وتلقائية وانطلاق وحياة كلها شباب، واللعنة على الحكمة وعلى أصحابها المتخشبون.. ترى هل يفتقد حليم فى علاقته بى شيئًا شبيهاً بذلك الشيء الإنسانى الغامض الذى يقبع دائماً فى أغوار النفس العميقة بحيث لا يسهل إدراكه أو التوصل إليه؟.. وما هى قدراتها العقلية والعاطفية التى استوعبته بها فسرقته منى فى غفلة من الزمان؟.

* * *

بعد منتصف ليلة هادئة ذهبنا إلى الفراش. كيف يستطيع هذا

المخلوق أن يقبل يدها ويضع شفتاه على شفتيها ويلتصق لحمه بلحمها؟.. وإذا كان قد استطاع ذلك فهل أستطيع أنا الأخرى أن أفعل مثله ولو انطبقت السماء على الأرض؟.. نظرت بعمق فى عينيه المنكسرتين. من المستحيل أن يستشعر معها دقائق رقائق لحظات النشوة الحبيبة الحيية العميقة الحميمية المسكرة التى عشناها فى شبابنا حين كنا ننصهر فى جسد واحد، فتلك مشاعر لا يسمح الزمن بتكرارها. هأنذا أبذل نفسى لك أيها الطفل الطيب العنيد الذى سُرق منى فجأة. إنه امتحان إجبارى عليك أن تفشل فيه عن جدارة لتثبت لى صدق حدسى.. وهاأنت جثة هامدة بين ذراعى العطوفتين عليك منذ التقينا أول مرة.. أتكون فرحتك بها كفرحتك الأولى بى فتتساوى كل الأشياء وتستحيل إلى عبث لا يحتمل، وتتجرد كل القيم الجميلة من معانيها دون أن يدرى أحدنا ما السبب فى ذلك؟.

لو اقتضى الأمر أن أقتلك فربما لا أتردد طويلاً. لن تعوزنى فرصة أقتنصها فى يسر لأتخلص من وجودك أيها الحبيب، وإنما سوف أنتظر حلول لحظة الإرادة ولن أتأخر ثانية واحدة. لكن هذه اللحظة لن تأتى أبداً فأنا الكائن الوحيد على الأرض الذى يعرف هذا.. تلك لحظة شيطانية ينفصل فيها آدم وحواء عن الزمان والمكان والجنة والأرض والأسباب والثواب والعقاب ليكمل أيهما بحمقه دائرة العبث.. قم وارتد ملابسك أيها المخادع الصادق فقد صدقت نبوءتى!

دبرت الخطة بأقصى سرعة ممكنة - بالاتفاق مع صديقة حميمة أعارتنى مفتاح فيلتها - مستعينة بمحمد وفاطمة كانا دائما الشكوى من الفراغ وانتظار قرار التعيين ومن قلق خطيبة محمد لعدم حيازته شقة وتعجل خطيب فاطمة للزواج بما يتعارض مع إمكاناتنا كموظف بدرجة مدير متحف ومهندسة بدرجة رئيس قسم.

تلك أشياء لم تكن تزعجنى بالمرة - مثلما تزعج حليم وتؤرقه أحياناً

ـ فالولد والبنت قد تربيا على الثقافة والوعى والفكر الراقى، والصداقة الحميمة بينهما من جهة وبين كل منهما وأبويه من جهة أخرى، مع جذور دينية تأصلت فى نشأتهما ـ لهذا فأنا لست قلقة بالمرة على مستقبل أى منهما . . الولد سيعثر على شقة بوسيلة ما ويتزوج، وحليم وأنا سندبر كل طلبات فاطمة بكل السبل المتاحة، كالجمعيات والأقساط والقروض وخلافه، لماذا أخاف إذن ومدبر الأمر كريم؟!

فى لحظات كانت عربتنا الصغيرة مجهزة بالساندويتشات وقد تم إخفاء الطبلة والكمان فى الحقيبة الخلفية . . ولم يدر حليم بنفسه إلا والعربة تجتاز به الطريق الصحراوى ـ بقيادتى ـ والولد والبنت يديران شرائط الأغانى الحديثة الراقصة ويصفقان فى سعادة، حتى فوجئ حليم بالعربة تتوقف أمام فيلا فاخرة فى ضاحية متطرفة من شاطئ غير مطروق يبعد عن العجمى بعدة كيلومترات .

افترشنا الخلاء الصحراوى الرائع أمام مدخل الفيلا وظهرت الطبلة والكمان . بدأت فاطمة تعزف ومحمد يطبل على إيقاع أغنية يحبها حليم اتفقا عليها من قبل، وأجلست حليم على مقعد عتيق الطراز أسميه بكرسى العرش وقلت له :

ـ الآن . . اجلس يا ملك .

وجلس حليم . . ورقصت له على موسيقى ابننا وابنتنا . . وبينما أرقص، كنت أرقب فى قاع عينيه فرحة العمر بما تبذله أسرته من حب وبهجة لإسعاده، ولكن كان هناك شىء خفىّ لم يزل !

* * *

قال أخى بثقة متناهية :

ـ أقسم أن زوجك لا غبار عليه يا عايدة .

ـ مستحيل .

ـ إن بعض الظن إثم . استغفرى الله فقد ظلمت الرجل .

ـ لعل رجالك لم يتعقبوه جيداً .
ـ لقد أرسلت فى أثره أكفأ رجالى .
ـ حليم على علاقة بامرأة يا شاذلى .
ـ ماذا تريدين منه أكثر من انضباطه فى مواعيد العمل والعودة إلى المنزل وبراءة كل اتصالاته التليفونية والبريدية ؟ ! !
ـ أريد أن أعرف أين يلتقى بها ؟
ـ إنه لا يغادر المتحف إلا إلى بيتك يا عايدة .
ـ لابد أنها إحدى زميلاته .
ـ زميلاته ثلاث وأنت تعرفينهن جميعًا . اثنتان فى عمر أبنائك والثالثة حيزبون متصابية انتدبت منذ فترة للعمل بالمتحف وهو خير مكان تصلح ـ فى رأيى ـ للعمل به .
ـ سوف تثبت لك الأيام صدق ظنى .
ـ الظن لا يكفى . أعطينى الدليل المادى وأنا أوقفه عند حده .
أى دليل مادى أقدمه لك يا سيادة العميد أقوى من أنفاس جسده الخائرة ونظرات عينيه المنكسرة وعودته إلى دواوين الشعر التى ظلت غارقة فى ترابها بعد أن كف عن قراءتها لى منذ سنوات طوال . . أى دليل أقوى من التماع عينيه بدموع حبيسة صامتة أراها بعينى قلبى وهو يستمع إلى إحدى أغانى أم كلثوم التى نسيناها فى غمرة ذوباننا فى شئون الأولاد . لا مفر من أن أقسو عليك يا طفلى الحبيب ، فاغفر لى جبروتى وبطشى لأنى بقدر ضعفى وليونتى أحبك ، ولأنى لن أغفر لك سقطتك ما حييت رغم أنى مازلت مشفقة عليك حتى هذه اللحظة . أرثى لك وقد ابتليت بداء لا دواء له فى مثل عمرك . لابد أنها تصغرنى بعشرة أعوام على الأقل . ولابد أنك تستعيد معها حديث عمك جبريل الذى يحلو لك أن تصفه بالغباء والذى حذرك من الزواج منى وأنا التى أكبرك بعامين .

ـ بيدك أن تنتزع منه الدليل.
ـ كيف؟
ـ بالقوة!
ـ ما أسهل اعتقاله لو كان هذا يسعدك.
ـ لا تتردد فى إلصاق تهمة سياسية به حتى يعترف بها.
ـ بأية تهمة؟
ـ بالمرأة طبعاً.
ـ يالقسوة النساء. عندى فكرة أرجح، فالاعتقال لن يحقق الغرض.
ـ ما هى؟
ـ ننقله بصفة وقتية إلى أقاصى الصعيد حيث تكثر المتاحف والآثار، فإذا أضناه البعد عن حبيبته التى تعشش فى عناكب رأسك، فلسوف يتجه أول ما يتجه إليها فى أقرب فرصة نتيحها له حتى يتحرك تحت رايتنا ●

(١٨)

بركات الحداد

١٩٨٧

بقائي في العيادة سواء في حضور الدكتور وفيق أو أثناء غيابه بالجامعة، لا يقلقني ولا يؤرقني في شيء ولو امتد طيلة اليوم، خاصة بعد أن بدأت صحته في التدهور. أما حين يرسلني بطلبات إلى المنزل فإني أجتهد في اختيار الأوقات التي تكون فيها زوجته بالعمل. لكن اجتهادي مرهون دائمًا بظروف الدكتور والدكتورة فغالبًا ما تجمع الأوقات بيننا وحدنا بالمنزل.

إني على استعداد لأن أقسم بجميع الأنبياء والأديان والملل أنني لم أفكر لحظة واحدة في خيانة الدكتور وفيق وليّ نعمتي، وفكرة الخيانة عند من هم مثلي من الفقراء لا تحوم دومًا إلا حول سمسرة عدة قروش أو جنيهات من حسابات البيع وشراء اللوازم وما إلى ذلك من أمور لا تؤثر في المخدوم إطلاقًا.. يمكن أن أرمي بجثتي على عميل أشعر بيسر حالته فلا أتركه يغادر العيادة قبل أن أغتصب منه البقشيش بطريقة أو بأخرى.. وإن فعلت ذلك - وقليلاً ما أفعل بضغط الحاجة - فإن ضميري يؤلمني كثيراً لأنه يغضب الدكتور لو علم به.

أما أية خيانة من صنف آخر فمن المحال أن تخطر ببالي ولا في الأحلام، فأين أنا الممرض ربع المتعلم.. الأجير عند هؤلاء الناس منذ عشرين عامًا.. أين أنا من سيدتي الجليلة مريم؟!.. لو فتح الدكتور قلبي وفتش في ضميري من ناحيتها فلن يجد إلا الطاعة والاحترام والولاء.. فكم هي سخية معي وكم هي متواضعة حتى أنها تناولت معي طعام الغداء يومًا على الأرض وحدنا بالمنزل حين كانوا يقومون

بدهانه وضحكنا كشقيق مع شقيقته الكبرى.. هكذا كنت أحسب أنها تعاملني.

رغم هذا كله فإنني ما أكاد أطأ باب الشقة حتى أجد لساني يلهج بالعياذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم كما لو كانت كارثة محققة تنتظرني بالداخل.. شيء غريزي يخيفني من هذه المرأة التي أعمل عندها وأحترمها وأحبها وأهابها.

إن ما يثير رعبي وحزني ودهشتي في آن واحد هو تعمدها المستمر منذ عشرين عامًا وحتى الآن أن تظهر أمامي بملابس داخلية مكشوفة وكأنني ندٌّ لها تريد أن تغويه والعياذ بالله، وكلما مرت السنوات كلما ازدادت محاولاتها تكثيفًا حتى أنها منذ ما يقرب من شهر أجلستني بعد أن وضعت الحاجيات وخرجت عليَّ بقميص نوم شفاف يبرز أدق مفاتنها الداخلية، ومالت أمامي كاشفة عن صدرها بوضوح قاتل.. إني أتعجب لماذا تفعل تلك السيدة الوقور هذا بنفسها، أم ترى أنها لا تقصد شيئًا على الإطلاق؟!..

كاد قلبي يسقط بين قدميَّ.. ألهذه الدرجة تحتقرني هذه السيدة الفاضلة فتعاملني كحشرة؟.. أمن المعقول أنها لا تدرك مشاعر رجل عفيَّ البدن أمام كهلة فاتنة تعرض نفسها له.. ألا تستحي مني. ألا تخجل من نفسها أم أنها تتلذذ بتعذيبي وإذلالي وهي تعلم ما بيني وبينها من مسافات وحُجب وموانع.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم. أستغفر الله العظيم. لقد فكرت مرة أن أهجم عليها بعد أن ادعت التعثر وسقطت أمامي على الأرض كاشفة عن سوأتها في قبح جنوني مثير. فكرت أن آكلها أكلاً وليكن ما يكون، مادامت هي التي تريد ذلك.. ولكني عدت بحمد الله إلى حصني الحصين وأعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم». وأسرعت هاربًا من البيت ●

(١٩)

عايدة فؤاد

١٩٩٣

أنا أستطيع أن أفعل أى شيء فى أى وقت مادمت مقتنعة بأحقيتى فى هذا الفعل، ومادمت لا أضمر من ورائه سوى الخير والسعادة لنفسى وللناس. وفيما عدا ذلك فأنا لا أخاف من الحياة بل أعشقها وكثيراً ما أستطيع الإمساك بأوراق اللعب مع عبثها والتلاعب بها أحياناً، ولا يهمنى حينئذ لو أسفرت المقامرة عن مكسب أو خسارة.

بهدوء مفتعل دخلت المبنى الإدارى للمتحف. سبق لى أكثر من مرة أن تبادلت الحديث مع نجوى ولمياء..

الفتاتان الوحيدتان اللتان تعملان معه فى الإدارة من جنس النساء. كنت أعلم أن حليم يقضى حاجة للأسرة فى ذلك الوقت، ولكنى سألتهما عنه ببراءة. قالت إحداهن:

- قال إنه سيصل اليوم متأخراً لعذر طارئ.

- هل تدعوانى لتناول الشاى معكما؟

كان ترحيبهما بى حاراً، لكن لم يكن بالمكتب غيرهما. كان مدخلى لهدفى حديث من القلب عن رغبتى الأكيدة فى تجربة النوم بداخل أحد التوابيت الرومانية لفترة طويلة بحيث تضمن بقائى على قيد الحياة. ضحكت الفتاتان بشدة، لم تكن إحداهما تتصور أن مانعى الوحيد من تنفيذ تلك الخاطرة هو التسبب فى الإضرار الأدبى لزوجى فى العمل، أما لماذا انتابتنى تلك الرغبة بشدة كدت أفقد سيطرتى على

مقاومتها .. فهذا مالم أفكر فيه لحظة واحدة.

ترددت كثيراً قبل أن أفكر فى سؤالهن عن الوافدة الجديدة التى وصفها أخى الشاذلى بالحيزبون.. وقبل أن يدفعنى الاضطرار إلى البحث عن حيلة مبررة لمثل هذا السؤال فوجئت بسيدة وقور ذات ملامح جميلة تكاد تتطابق مع ملامح أم حليم، تدخل بابتسامة متعبة وتؤدى لنا جميعًا تحية الصباح متجهة إلى غرفة أخرى - ربما كانت غرفة مكتبها الخاصة - وتغلق من خلفها الباب.

أشعلت سيجارتى الثانية وأنا أتساءل بلا مبالاة مدروسة:

- من هذه السيدة الصامتة كأبى الهول؟

- إنها الدكتورة مريم.

- طبيبة بالمتحف؟

- بل دكتورة فى الآثار.

- منذ متى تعمل هنا؟

- منذ حوالى شهرين ألا تعرفينها؟

- نعم لست أعرفها لأن حليم لم يحدثنى عنها.

- إنها كانت معيدة بالقسم الذى تخرج فيه الأستاذ حليم.

- يبدو أنها ميالة للانطواء.

- ولكنها شديدة الطيبة وتحترم الجميع.

بعد قليل دخلت علينا مريم حاملة فنجان قهوتها. طلبت بلطف من الفتاتين أن يعقدا بيننا تعارفاً. قالت إحداهن:

- مدام عايدة حرم الأستاذ حليم.

قالت بثبات الأهرام.

- أهلاً وسهلاً شرفت المتحف.

- أصحيح أن زوجى كان تلميذك؟

- بل كنت معيدة عليه لعامين فقط، ولكن أين هو؟

فكرت أن أضفى جواً من المرح المصطنع أجوس من خلاله فى خزانة أفكارى المغلقة، فقلت :

- تقولان إنه سيتأخر لعذر طارئ لست أعرفه .

- الغائب حجته معه .

- أخشى أن يكون عند زوجته الثانية .

وتبادلنا الضحك جميعاً . فجأة سارعت مريم بالاستئذان للذهاب إلى عملها دون أن تسمح لى بثغرة أنفذ منها إلى عقلها أو بفرجة صغيرة ألقى من خلالها نظرة خاطفة على قلبها . . وبقيت أثرثر مع الفتاتين حتى استقرت الطمأنينة فى قلبى وأدركت أن موقع الخطر ليس فى هذا المكان، فحليم لا يمكن أن يحب قطعة من الصلب، بل إننى لم أتذكر أن أسأل عن مريم هذه قبل مغادرتى المتحف تاركة رسالة شكلية للفتاتين كى يسلماها لحليم عند عودته، وبدون أية مناسبة أو سابق تفكير دعوتهما للعشاء معنا بالمنزل وكنت سعيدة بقبولهما المشوب بالدهشة ●

(٢٠)
وفيق جرجس

١٩٩٢/١٩٩٣

رغم أن رباطنا الجسدى ظل العمر كله بلا روح، إلا أن الأمر يختلف كثيراً منذ اختل التوازن البيولوچى بيننا بحكم فارق السن فلم تعد همتى مواكبة لرغبتى أبداً.

كانت تستقبل هزائمى المتتالية بنظرات لا تحمل معنى التشفى والغضب أو السخرية، وإنما كانت تحمل معانى غامضة لم أستطع تفسيرها. ربما كان الزهد فى ذلك الارتباط من أساسه حين فقد الجسد بعد أن فقد الروح.

سنوات عديدة مضت على ذلك النحو الانهزامى الرتيب.. أذهب إلى عيادتى منذ تركت الجامعة بصفة منتظمة. أرسل إليها الطعام والفاكهة مع بركات الممرض الشاب الذى يعمل معى منذ صباه وأئتمنه على عيادتى وبيتى بنفس القدر دون أن تبدر منه بادرة تسىء ظنى به مرة واحدة. تعد الطعام فى المساء، وفى الصباح تذهب إلى عملها.. يحدث ذلك منذ أن كانت تعمل فى الجامعة ثم من بعد عودتها الأخيرة من أمريكا وعملها بوزارة الثقافة. أما الذى تفتحت عليه عيناى ومشاعرى وأفكارى فهو ذلك النضج الأنثوى المتفجر بالحيوية والحياة الذى راح يدب فى جسدها، وقد بدأ اهتمامها به يتزايد فبدت كما لو عادت عروساً فوق العشرين. وكان البعض يظنونها ابنتى وهى جالسة إلى جوارى فى العربة فأضغط على أعصابى ولا أملك من أمرى وأمر هؤلاء البعض شيئاً.

كنت أشكو لوعتي أحيانًا لبركات. أقول له هاأنت ترى بعينيك يا بركات. إنني لا أكاد أراها ساعتين من اليوم كله. أصحو من النوم لأجدها قد غادرت المنزل إلى عملها. أعود لأجدها قد أعدت لي الطعام ونامت.. بل إنها تنسى إعداده في بعض الأحيان أو تتعمد ذلك. أستريح قليلاً قبل أن أعاود الذهاب إلى العيادة. أصحو فلا أجدها ولا أعلم أين ذهبت إلا من ورقة صغيرة تكتب لي فيها أنها عند أمها، وأحيانًا لا تكتب شيئًا. أعود من العيادة فلا أجدها. أتصل بأمها فتقول إنها نزلت منذ فترة.. وحين تعود بعربتها وقوتها وعنفوانها وعطورها وملابسها المتأنقة يكون النوم قد استولى عليّ بعد إرهاق يوم طويل. هل تسمي هذه حياة زوجية يا بركات؟!

- فيم تتبادلان الحديث إذن؟

- قليلاً ما نتحدث حول شئون بشارة أو أنبوبة البوتاجاز الناقصة.

- ولكنها سيدة طيبة ومحترمة يا دكتور.

- لن تفهمني يا بركات مهما أوضحت لك.

- ربنا يخليك لها ولنا يا دكتور. أنت أيضًا ابن حلال وتستحق كل الخير.

- إني أعيش وحيدًا يا بركات.. وبهجرة بشارة إلى أمريكا بتحريض منها فمن لي في هذه الحياة؟

- لماذا لا تعاتبها ولو في لحظة تسامر خاطفة؟

- لا أريد.

- لماذا؟

- لا أعرف ●

(٢١)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٣

أصبح أمراً معتاداً أن نبدأ يوم العمل بذهاب أحدنا لمكتب الآخر ليشرب عنده القهوة. نتبادل الحديث معاً بشغف متبادل، فأثرثر معه على غير عادتي حتى أنني قلت له يوماً في تلقائية عابرة مفاجئة ندمت عليها:

-إنني أصبحت أتكلم معك أكثر مما أتكلم مع زوجي.

بهرتني أحاديثه عن رومانسية الدين المسيحي وعن حبه الشديد له وتمنيت من قلبي أن يكون مسيحياً، بل إنني ألحت له يوماً بذلك لكنه تجاهل تلميحي بذكاء يحسد عليه. فوجئت بأنه يحفظ آيات لا حصر لها من الإنجيل ربما أكثر مما أحفظه أنا. تصاعدت الألفة بيننا يوماً بعد يوم حتى تبين لي أن هناك عشرات من الأفكار تجمع بيننا أكثر مما تفرق، وأن احتياجي إلى الكلام معه أصبح لا يقل عن احتياجه إلى الكلام معي. الفارق بيننا أنه لا يستطيع إخفاء شعوره بهذا الاحتياج ولا يريد إخفاءه، أما أنا فلا أستطيع غير إخفائه.

لاحظت تعمقه في فهم طبيعة التكوين النفساني للمرأة القبطية كمسيحية شرقية متحفظة تقدس الزواج وتحترم الزوج باعتباره رأس المرأة - مثلما يحترم قوامة الرجال على النساء - وتعيش معه في السراء والضراء حتى الموت. في البداية كنت أحسب أنه يتودد إليّ تملقاً لديني حتى أشعر تجاهه بالأمان، ولما سألته:

ـ لماذا تحللون لرجالكم الزواج بمسيحيات وتحرمون على نسائكم الزواج بمسيحيين؟

فوجئت به يجيبنى بابتسامة كلها مودة خالصة وكأنه يعتذر لى قائلاً:

ـ لأن المسلم يعترف بالأديان السابقة على الإسلام وبذلك تكون زوجته الكتابية آمنة على دينها معه لو شاءت الاحتفاظ به، أما المسيحى فإنه لايعترف بالإسلام وبذلك لا يمكن أن نزوجه بمسلمة لأنها لن تكون آمنة على دينها معه.

ولما تكاثرت حوادث العنف والإرهاب ضد أقباط الصعيد وجدته حزيناً مكتئباً آسفاً وكأنه المسئول عما يحدث، وقد عهدت فيه دائماً حرصه الشديد على تجنب الحديث عن كارثة دانيال ولو بمجرد الإشارة إليها حتى لا يثير آلامى.

كان خوفه على البلد شديداً وغالباً ما ردد قوله واضحاً:

ـ أخشى ما أخشاه أن يستولى هؤلاء المتطرفون على الحكم لأنهم لا يمثلون الإسلام فى شىء!..

وكأنه يعزينى بأدب وحساسية فى أخى!

هكذا اطمأن قلبى إلى صدقه، لكن دم دانيال لم يكن يسمح لتلك الطمأنينة أن تغزو قلبى أبداً، أما كراهيتى العنيفة للجثث الملقاة فى البئر فلابد أن تفقد يوماً تأثيرها السام على مشاعرى.. واللعنة على كل الفلسفات المادية التى حشا بها الغرب دماغى، فوضعت مواصفات قياسية لكيان الرجل الذى سأختاره ليعيش معى مدى الحياة، تبين لى أنها خاطئة. هذا الكيان يحمل روحاً لم أضعها فى حسبانى، فكان أن فزعت إلى البحر ولم تشفع لى البراجماتية ولا التحليلية ولا الوجودية عنده حين مزق آدميتى كذئب مسعور إلى قطع من اللحم والعظم والغضاريف فتصاعدت روحى ولم تعدنى أبداً.. ورغم ذلك عاشرته

دون أن يعرف قلبى فى تلك المعاشرة ارتعاشة الحب مرة واحدة.

إن الرب عادل رحيم، ولسوف يغفر لى خطاياى ويقدرنى على أن أغفر لوفيق خطيئته معى وهو زوجى، وإلا فليقذف بنا الرب معا إلى الجحيم، وإذا كان صحيحاً أن الحذر يؤتى من مكمنه فإننى أصبحت أتوق بشدة إلى فتح باب صغير من بوابات قلعتى حتى يدخله حليم بكامل إرادتى ووعيى وتحفظى، حتى لا تصعقه محاذير جنتى التى لا يعرف عنها شيئاً لو أدخلته من أوسع أبوابها.. وحتى لا أندم يوماً على تسليم عقلى لقلبى يفعل به ما يشاء.

بالأمس رجوته أن يكتب لى معبراً عن أعماق مشاعره تجاهى فقد عشقت كلماته الرقيقة وخيل إلى أننى تمنيت فى لحظة أن أفديه بحياتى.. ذلك الرجل الوحيد الذى أحبنى.

ما أروعه حين يكتب لى:

«إننى متنازل عن حاجتى لألبى حاجتك. أريدك أن تذوقى طعم حلاوة الحب ودهشته وروعته وفرحته وقوته ونضارته.. حين أقف خلف نافذتى أمام المقابر وألمحك فأفتحها على مصراعيها حتى أتنسم هوى رؤيتك من على البعد المتاح وأتمنى أن ألوح لك بيدى ولا أريد منك أو من أيامى القادمة أكثر من ذلك. إن حبى لك مسئولية رهيبة أتحملها بعمرى. إنى أكرر لك الدعوة يا عصفورتى الخضراء أن منتهى أملى أن ينبض قلب كل منا بحب الآخر وأن تمتزج أنفاسنا معًا بحب الناس والكون والحياة، فتملؤنا الفرحة ويغمرنا الحبور فى الأمل بأيام سعيدة مقبلة».

* * *

أهو تعاسة الحظ أم أنه تخطيط القدر؟.. إنى أتعجب كيف تحدث معظم الأشياء فى هذه الحياة بطريقة مفاجئة، وأتساءل دوماً عن الحكمة فى ذلك، وغالبًا ما أستسلم لعبث الأقدار. فجأة وخلال ساعات قلائل

أصبح أمراً واقعًا يتحدث عنه الجميع ببساطة : حليم نقل بغير سبب معروف إلى الأقصر .

١٩٨٨

من أغرب غرائب هذه الحياة الدنيا والتى لا تتاح معرفتها إلا لمن يفهمها حق الفهم ، هو حتمية الاستسلام أحيانًا لعبث الأقدار ، والأغرب من ذلك هو أن يُسفر ذلك الاستسلام عن انتصارات رائعة رغم آثاره الدامية المفجعة .

حين استقبلنى على الفيتورى بمكتبه بالجامعة الأمريكية لينتدبنى للتدريس عامًا جديداً - قابلاً للتجديد لمدة أربع سنوات - فوجئت بوجهه المصرى الأسمر . كان فى عمر أبى أو يقل عنه قليلاً . منحنى ابتسامة صفراء ودعانى للجلوس على المقعد المواجه لمكتبه . حدثنى قليلاً عن ابن له يمتلك مصنعًا للبلاستيك بالإسكندرية وآخر بالقاهرة . تعجب من إصرارى على البقاء فى أمريكا لفترة أطول أو لأطول فترة ممكنة ، واندهش لتشبثى برغبتى . فجأة قال لى وهو يتفحصنى بعمق شديد :

- إن أمريكا تفتقر إلى الصدور الشرقية الساخنة .

لم أعلق . ابتلعت ريقى عندما شعرت بأننى عدت فى لحظة إلى مصر التى هربت منها . أصدر أمرًا هادئًا واثقًا :

- تعالى .

- إلى أين ؟

- هنا بجوارى .

قمت على الفور بثبات إلى جانبه أقاوم انتفاضات جسدى وارتعاشاته الفزعة . كرر أمره الهادئ الواثق :

- إجلسى .

- أين ؟

ـ على حجرى.

جلست على حجره بعقلى الذى كاد التفكير المجرد أن يلهبه. فك زراً واحداً من القميص وأخذ يعبث بصدرى بيد مرتعشة فى البداية مجنونة فى النهاية، ولم أستطع أن أبدى تجاهه أدنى اعتراض.

أعاد أمره الهادئ الواثق مرة ثالثة:

ـ انزلى.

نزلت عائدة إلى مقعدى، وكنت أريد أن أصرخ مستنجدة بالعذراء من هذا الكابوس الجهنمى فلم أتمكن من ضبط أنفاسى رغم رغبتى العنيدة فى ذلك. لكنى سألته بنفس هدوئه بعد أن نجحت فى التماسك:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ كنت أقيس درجة حرارة صدرك.

ـ لماذا؟

ـ لأنها مسوغات انتدابك يا عزيزتى والتى سأنهيها بيدى.

وقع على بعض الأوراق وطلب منى أن أمر عليه غداً فى نفس الموعد لاستلام بقية أوراقى كاملة.

١٩٩٣

.. آه يا حليم.. ليتك لا تشتهينى مثل هؤلاء الكلاب.. لو لم تشتهنى سأسلمك روحى وقلبى وأفديك بعمرى، ولتفعل بى حينئذ ماتشاء، فأنا على يقين الآن من أننى أحبك. أحبك يا معجزة حياتى ومستحيلها ●

(٢٢)
حليم صادق

١٩٩٣

في الموعد المصرح به للاقتراب من باب الجنة الموعودة كنت أعبر الشارع إلى موقع اللقاء. رأيتها جالسة في عربتها وعلى وجهها ابتسامة مترعة بكل متناقضات الدنيا، معبرة أدق تعبير عن طبيعة الحال. رأيت فيها الشوق والفرحة والخوف والقلق والسعادة واللهفة.. الشعور بالذنب والندم. الإقدام والإحجام. السخط والرضا.. امتصت أعصابي ابتسامتها الحائرة الخجلى فصرت أنا الذى يعانى لها ما تعانيه.

أحبتني مريم.. أحقًا هذا؟.. لقد أيقنت بحدسها الرهيب أنني مدرك بالقلب لدقائق مشاعرها، غائص بالحب في سراديبها فحالها من حال محبتي.. ضربت لي مريم موعداً.. أهذا حق؟!.. قال لي صديق ذات يوم إن تبادل الحب في هذا الزمان بحاجة إلى عبقرية فذة.. فالحب هو أنت، وأنا لن أحبك ما لم تكن أنا.. وأنت لن تكون أنا إلا إذا كنت عبقريًا في علمك وإحساسك بأدق وأرق دقائق ورقائق خلجاتي ونبضاتي وأوهامي وأحلامي وظنوني وأوجاعي وأفراحي وأتراحي.

بهدوئها الذى يغلي في مستودع أسرارها فتحت لي باب العربة قبل أن أصل إليها بعدة خطوات.. نحن الآن في حالة تلبس باختراق العرف واقتحام القيم لأننا في لقاء غرامي ممنوع يجمع رجلاً في الخمسين بامرأة في الرابعة والخمسين وكلاهما عاش حياته المستقرة كاملة وتزوج وأنجب.. ومع أول تلامس لليدين عند المصافحة كنا ندرك معا

فى صمت أننا نخطو خطوة نحو الخطيئة.. من يخطر بباله الآن أن هذه السيدة الجليلة الوقور تغادر بيتها وعملها لتلتقى بى، وكأنما أسلمتنى عقلها الذى يزيد فى ثقله كثيراً عن عقول عشرات الرجال؟.. ذلك لأنها تعرف الحب لأول مرة، والحب لا يعرف العقل.. وكنت قد سألتها قريبًا وجسدى يقطر عرقًا ولسانى يتلعثم فى حروفه:

- هل أحببت يومًا؟

فهزت رأسها نافية بلا انفعال.

- وهل تحبيننى؟

فهزت رأسها مؤيدة فى حياء سلبنى روحى.. لكنها لم تتكلم!

ها هى تقود السيارة فى استسلام قدرى رائع إلى مصيرنا المجهول. ماذا لو اصطدمت السيارة بأخرى فتهشمت وأصبنا بجروح ونقلنا إلى المستشفى وعلمت الدنيا والآخرة أننا كنا معًا فى العربة وأمامنا مشروبان مثلجان أحضرتهما معها تحاشيًا للجلوس فى مكان عام!!..

جلسنا عند نهاية الكورنيش داخل العربة فى مواجهة طابية قايتباى الأثرية. لم يكن أحدنا يعرف كيف يبدأ القول وماذا يقول. فجأة قالت لى بحسم:

- من العار ألا تعرف سبب نقلك أو انتدابك.

- سوف أعرف بإذن الله.

- ومن الضعف أن تمتثل له دون أدنى مقاومة حتى تعود بأسرع ما يمكن.

لم تفلح عباراتها النارية فى إذابة حزنى العميق. أهكذا كتب لعلاقتنا أن تموت قبل أن تولد؟.. ألله فى ذلك حكمة؟.. شعرت برغبة فى البكاء إذ يبدو أن الأمر كذلك حقًا، ذلك أننى كنت قد شرعت من خلال تدريب روحانى عنيف منذ عام مضى على إعداد نفسى للزهد قليلاً فى الدنيا والاقتراب من الله. لكن مجىء مريم كان ابتلاء متزامنًا

مع ما انتويته، ولهذا خيل إلىّ أنها رسالة مجهولة المصدر مبعوثة إلىّ لتقول إننى تعجلت فى رغبتى وأن أيامًا فى هذه الدنيا أحلى من العسل مازالت قادمة فى الطريق، فلا تحرم نفسك منها، وتوقيتك للقرب لم يأت بعد. صحيح أنك قد تموت بعد كسر من الثانية فلا تطول هذا ولاذاك، لكن هذا الابتلاء سوف ينفض التراب والصدأ عن معدنك الحقيقى، فالحب الثانى قد يصهر الرجل وينتقل به إلى حياة تتحرر من الجوع والنهم والسرعة وتنحو نحو الطمأنينة العارفة، وما أجملها من حياة تزينها صحبة مريم الرائعة وصداقتها الطاهرة. حياة يسمو بها العقل إلى الروح ولا يتهابط إلى تراب الجسد.. ولئن كان عمرى كله تاجًا مرصعًا بجواهر الحب والمعرفة، فمريم عندى هى درة هذا التاج الذى يتلألأ على جبينى بأنوار الخير والجمال.

- هل يعجبك هذا؟

- ماذا؟

- وجودنا معًا فى عربة على قارعة الطريق!

- يعجبنى ويدهشنى ويسعدنى.

- لا شك أننى أصبحت أتصرف كمجنونة بسببك.

- لكنك أجمل مجنونة رأيتها على وجه الأرض.

ليلة الأمس حين وضعت رأسى على الوسادة كان وجهها ملاصقًا لوجهى وأنفاسها تلفح أنفاسى. تحسست بأناملى أنفها الرومانى المصرى الفرعونى ذا الكبرياء المجنون. قبلتها فى عينيها غير عابئ بمقولة الفراق.. هاهو يتحقق.. ثم قبلتها على جبينها المضىء عرفانًا بحبها العظيم لى - ذلك الذى لم تفصح بلسانها عنه - ثم على وجنتيها النضرتين عشقًا فى جمال الخالق فى مخلوقته التى صارت حبيبة إلى قلبى. أحطت خصرها بيدى.. ذابت بكياتها فوق صدرى فلثمت شفتيها بحنان العاشق ولهفة المشتاق.. لم يعرف النوم طريقه إلى عينى

قبل أن ينهكنى الأرق الجميل فأدرك أن أيامى قد صار لها معنى وأن فى استمرارها رفاهية لم أكن أحلم بها.

حين استيقظت كانت عايدة بجوارى فعرفت أن الشبات لا يعرف القلب ولا الزمن. سوف أحمل مدفعًا رشاشًا وأنزل إلى الشارع أطلق نيرانى على الموت والملل. ولئن نجح الماضى فى الاستبداد بحياتنا وتجميدها فليكن المستقبل لنا، ولنلتقى ولا نفكر فى وفيق أو عايدة «فلقد دخلت جنتى يا أختىَ العروس».

* * *

كنت أتصور أن الذى يدفع الدماء ويضخ الحياة فى هذا الكيان الخرسانى المتصخر، إن هو إلا قلبٌ قُدَ من فولاذ.. ولكن ما أن اقتحمت القلعة من بابها القدرى الذى لم يهتد إلى سره أحد من قبلى، إلا ووجدت نفسى أمام قلب عصفورة صغيرة أخضر اللون. هش كزجاج رقيق. يا الله. أهذا قلب مريم أم ترانى فى حلم جميل؟

إنى أدعو الله من قلبى بالسعادة لذلك الرجل المجهول الذى أصدر قرار نقلى إلى الأقصر فكشف لى عن مكنون قلب حبيبتى. إنها تحبك يا حليم. تحبك. هل تدرك ما تقول وتوقن أنه حقيقة أم أنك تحلم؟.. لقد تكلمت عيناها بلغة مفهومة واضحة جلية لأول مرة. كانت حزينة للنبأ. متلهفة على قرار مضاد يصدر فى التو واللحظة ليلغى هذا القرار.

اندفعت إليها بلهفة عمرى كله. بخمسين عامًا ولت فى ثوان. بالعمر المتبقى الذى لن يكتب له البقاء قبل ارتشاف رحيق القبلة الأولى. بعينى طفل برىء يرى الدنيا لأول مرة ولا يعرف الضلال ولا الهدى. بقلب شاب لا يخطر الموت بفكره. اقتربت بوجهى من وجهها. كانت وجنتها تفاحة حمراء صابحة، وكانت المسافة بين جبهتينا لحنًا غامضًا يعزفه القدر. تسلل أريجها إلى أنفى فكانت أنفاسها نبض الحياة منذ بدء الخليقة. وعندما اقتربت المسافة بيننا

كانت الدنيا بأسرها لقاء حافلاً يدعو إلى العناق.. وكانت الآخرة امتداداً لها، فكانت الجنة وكانت النار، وكان التاريخ والتراث والدين والأعراف والأخلاق والأزل والأبد ونسمة صيف لافحة وترنيمة طير أخضر رقيق.. ذابوا جميعًا فى عناق فى تلك المساحة الفاصلة بين وجنتيها، والتى كلما انحسرت أشعلت حرارة الشوق فاستحال الانحسار إلى اتساع لا نهاية له.. كون سرمدى يعج بأسرار الخلق والبدء والانتهاء والوجود والعدم كان يشغل تلك المسافة زماناً ومكاناً.. ما أروع أن تجتمع أكثر من مائة عام بين شفاه أربع يتهددها الفراق الوقتى من قبل أن تلتقى وأن يذوب كل هذا العمر فى لحظة هى رشفة من رضاب الحب المسكر.. أن تهدر شلالات الذكريات بين أعطاف ذلك التماس الشفيف الحانى وأن يتكثف الوجود كله فى لحظة ملهمة تنصهر فيها الأسرار والمعانى وكل ما لا يقال وما لا يدرك بحرارة ذلك اللقاء.

وفى اللحظة التى تلاشت فيها المسافة واقتربت الشفاه، اقتحمنا هاجس غامض متوحش لم أدر من أين جاء بسطوته وقوته وجبروته ليضع بيننا حاجزاً عنيداً على كف مريم تخفى به خدها الوردى الجميل لتحول دون تحقق لحظة الانتشاء المقدسة. كفها يفصل بين وجهى ووجهها كحد سيف يرتعش بقوة، ويضيق فؤادها بالسر فيتفجر فى المسافة المتلاشية لحن القدر بقوة رعدية تحيل العناق إلى حرب قاسية يتأجج فيها الصراع بين النار والجنة والشياطين والملائكة ودانيال والمتطرفين والحرام والحلال والخيانة والأمانة ووفيق وعايدة على جبهتين تحارب إحداهما انتصاراً للحب والثانية لدموع الشفق الحزين.

- لا...

شهقت بها مريم وقد تقطعت أنفاسها النارية المتهدجة فى الهوة

السحيقة الفاصلة بين وعيها وقلبها، وقد أسفرت الحرب عن تمزيق روحها إلى شطرين تفصل بينهما تلك الهوة ممثلة فى الكف المتصلب الحاجز، ومريم عاجزة عن لم شملها بينهما.. وكان الشارع خاليًا من المارة وكان السر حبيس صدرينا وأسلحة الأضداد مشهرة فى عقلها - وفى عقلى أيضًا - بعد أن نجح المجهول الغامض فى حصارنا داخل عربتها الصغيرة فى شارع ضيق بمدينة مزدحمة ودنيا الله واسعة بالمروج والصحارى والوديان والغابات والأنهار.

منعنا ذلك الشيء المجهول من اللقاء على الملأ. حال دون خلوتنا فى مكان آمن. سلبنا القدرة على الكلام الحر. أفرغ سُمًا فى ضميرنا المتوحد الذى لم يهتد الشر إليه.. لتقول لى مريم بعينين دامعتين متوسلتين:

- لا...

تقولها بنبرة عذراء، مرتبكة فى حيائها الذى أحال روحى إلى رجفة يتنازعها الخوف والرجاء.. لماذا يحرم علينا الحب، ولماذا تقيد روحانا بالفولاذ فأرى على كف مريم - المائل أمام شفتىَ كسد من صخر - خطوط القتال وأنهار الدماء ومقابر الضحايا والشهداء وصيحات الملوك وهدير الجنود وانهيال الرماح وتساقط الصواريخ وانفجار الألغام وبكاء الآباء على الأبناء ثم معاهدات الصلح وعناق الكذب وتوقيعات الزعماء على الوثائق، وتبحث شفتاى المحمومتان عن شفتى مريم فلا تجدهما.. وتبكى مئذنة!

- لا...

إنى أحببتك فوق التصور رغم أن المستحيل هو أن يكون أحدنا للآخر حتى النهاية. وإنى أقرأ فى عينيك ما قرأته فى عمرى من صفحات القرآن والتوراة والإنجيل. اقتلونى ومزقوا جسدى وبعثروا مزقه فى أرجاء الدنيا - أيًا ما كنتم - فلن تحرمونى من قبلة الحبيبة.

يا مريم حطمى حصون تذبذبك بين الحب والحقد وأغمضى نجمتيك الشاردتين لنور القمر . إنى قادر على هزيمة شياطين الأرض فلقد استحلت فجأة إلى وحش يمسك بكف مريم . يزيحها بقوة عن وجهها فتتساقط الشياطين كالذباب ، ولا نامت أعين الجبناء . . لكنى لم أحتمل أن تلمح عيناى ذلك الفزع الرهيب فى عينى حبيبتى ، فتراجعت فى نبل إشفاقًا عليها . ابتعدت لأربت على ظهرها وأكتفى بتقبيل يدها ودموعى متحجرة فى عينى وروحى حبيسة ابتسامة الهاجس الخبيثة الظافرة :

أحقًا أسافر يا مريم وتتركينى وحيداً فى مواجهة الكون . أحقًا لن أراك لأجل غير مسمى ورغم ذلك تحول كفك بين شفتى وشفتيك حتى لا أقبلك ؟ !

انتزعت من روحى بسمة من يرى نهراً من حنانه يسيل من العربة إلى أرض الطريق . . وكنت أرى النجوم تتساقط أمامى والأقمار وأنا عاجز عن التقاطها .

وحين أدركت أن عمرى القادم لم تكتب صفحته الأولى بعد ، كان لابد أن نغادر الشارع الذى وصلنا إليه ليعود كل منا إلى جدرانه الأربعة حيث عالمه المستقر القديم ●

(٢٣)

عايدة فؤاد

١٩٩٣

شهر كامل أمضاه حليم فى معبد الأقصر. لم يتصل بأحد سواى. لم يكتب رسالة لأحد غيرى. أنا حبيبته الأولى والأخيرة وبنت الجيران التى كانت أول من فتحت قلبه ورقدت به. حليم ليس حصيفاً لدرجة أن يحتاط كل هذه الحيطة لنفسه لو كان على علاقة بامرأة حرمه البعد من وصلها. صدق ظن الشاذلى فلماذا نتركه وحيداً معذباً، وقفت أمام أخى متخاذلة أرجوه إعادته بأية وسيلة.

ـ سأدبر الأمر دون حرج له أو للمسئولين ولكن أرجو ألا تشركينى فى هواجسك مرة أخرى.

ـ لن أشركك فيها ولكنى مضطرة للاحتفاظ بها.

ـ متى تتخلصين من رومانسيتك المريضة هذه أيتها العجوز؟

ـ مسكين.. أنت لا تعرف أن الرجل أكثر رومانسية من المرأة.

ـ منك نستفيد.

ـ الرجل واقعى فى تفكيره العام ولذا يُحِب أن يتصور المرأة كملاك لتخفف الصورة عن كاهله أعباءه الواقعية.

ـ ومن قال لك أننى أتصور زوجتى ملاكاً؟

ـ لا يهم أن تتصور، لكنك تتمنى، أما المرأة فلكونها عاطفية فهى تلوذ بالواقع بقوة، والدليل على ذلك أنها تلجأ إلى السحر أو القتل أحياناً لمجرد الاستحواذ على الرجل.

ـ وهل تدخلين السحر فى مجال الواقع.

ـ طبعًا.

ـ يا ساتر يا رب.

ـ متى يعود حبيبى؟.

ـ خلال أيام بإذن الله.

ـ أقسم بالله لو تباطأت فى إحضاره لأخذت الأولاد وذهبت إليه.. هه!

* * *

استقبلته بحب طاغ. كان مقتنعًا لسذاجته بما أوهموه به أنهم ندبوه هذه الفترة إلى معبد الأقصر لأهمية الفوج السياحى الشديدة. انطلت عليك اللعبة وخدعتك يا طفلى العزيز الذى يبدو أننى لم أعرف كيف أعوضه عن أمه فى حياتها أو مماتها رغم حبى العظيم له.. فكيف أعتذر لك؟

فوجئت باتصاله الفورى بالمتحف قبل انصراف الموظفين، بينما إجازته ممتدة ليومين قادمين، فعاودنى الشك من جديد.. هل يعقل آدمى أن تكون هى تلك السيدة العجوز الوقور التى رأيتها فى المتحف؟!.. إنى أرفع وأعف بكثير من أن أضعها موضع المقارنة والتنافس، فالوجه الحقيقى لا يدخل فى منافسة مع قناع. وأنا وجه مشرق جميل الوضوح يعكس ما بصدرى من حرية وتلقائية وانطلاق. أما هى فقناع من الصمت والماكياج والشعر المستعار والكلمات المقتضبة.. ثم إنها فى عمر أم حليم.. لا.. ليست هى ولن تكون أبدًا.

هناك سبب آخر.. إذا أراد حليم أن يهجرنى إلى امرأة أخرى فأنا أول من يعلم أنه يرتعد خوفًا من الزنا ويردد دائمًا أنه يورث الفقر. ولأنى أكثر واقعية منه كما قلت لأخى، فإنى أعترف أن تقدمى عليه فى السن بعامين جعلنى أسبقه فى الزهد فى تلك العلاقة الجسدية الحميمة لقلة احتياجى لها رغم أنه مازال فى عنفوانه.. وهو معذور حين يعزى تباعده

عنى لقلة رغبتى.. تلزمه إذن امرأة تصغره بعدة أعوام تستنفر حيويته من جديد. أحيانًا أفكر فى ذلك وغالبًا ما أستبعد أن يكون هو السبب. فهل يساوى هذا الأمر أن يتخلى عن مسئولياته تجاه محمد الذى يبحث عن شقة لا يمتلك من ثمنها شيئًا يذكر، أو عن فاطمة التى يتطلب جهازها عشرات الآلاف من الجنيهات؟.. وهل هذا الأمر فى هذا العمر يساوى أن يتخلى عنى؟.. إنى أشك فى ذلك.

دخلت إلى الحمام.. وبينما أغوص فى الماء رحت أغنى فى طمأنينة بالغة، وأقذف برذاذ الصابون فى الهواء كاتمة ضحكاتى - التى لا أعرف لها سببًا - فى البداية، ثم مطلقة لها العنان فيما بعد ●

(٢٤)

الدكتورة مدينة

١٩٨٨

أيام الجامعة أحببت زميلاً لى فى صمت خائب فلم يدر بى. كانت غلطة عمرى مثلما كانت نقطة التحول فى طباعى وفى حياتى بأسرها. أدفع اليوم ثمنها غربة ووحدة وضياعًا. ويظن حليم أن رواج كتبى السياسية فى أمريكا ومصر هو قمة المجد والانتصار على الحياة. إنه لا يدرك معنى أن يتصادف موتى فجأة فى الفيلا الضخمة التى أعيش فيها بمفردى حيث لا تحضر الخادمة إلا يومين كل أسبوع. قد تتعفن جثتى لو أصاب الخادمة طارئ مفاجئ فلم تحضر. وحتى إذا مت بجوارها فكيف يكون تجهيزى للقبر وللحياة الآخرة.. وأين سيكون إخوتى وأخواتى المقيمين بالإسكندرية والقاهرة.. جثة دكتورة فى الاقتصاد السياسى مهاجرة من مصر منذ ثلاثين عامًا تدفن فى لحظة ما فى مكان ما - غريبة مغتربة مغربة - ثم تنسى على الفور. لا قرآن ولا عزاء ولا لوعة أحبة ولا مقبرة تزار ولا ذكرى تبقى.

حتى لو حضرنى سمير زخارى - صديقى المصرى الوحيد هنا - فماذا سيفعل بى غير الحزن الوقتى على سنوات الزمالة الطويلة التى أمضيناها فى مصر معًا وفى أمريكا.. ثم لن يلبث أن يطلق ضحكته الساخرة المجلجلة قائلا:

- رقدت على رجاء القيامة المقدسة المرحومة مدينة محمود. عاشت عذراء وماتت عذراء.. عليها رحمة الله تعالى. وطوبى لمن اخترته

وقبلته يارب ليسكن فى ديارك إلى الأبد!

ثم يعود إلى زوجته وأولاده..

هذا السمير الرائع لا يستطيع أحد القول بأنه مسيحى أو مسلم أو يهودى.. عليه اللعنة فهو الذى أضاع منى ذلك الزميل إذ جعله يعتقد أنه سوف يسلم ويتزوجنى فصدق دعابته الرجل الطيب وبارك قوله وتزوج من غيرى وتركنى فى صقيع أمريكا الكريه.. أقرأ الكتب وألتهم المراجع والسجائر وأفنى عمرى فى تجميع معلومات وتدريسها ونشر بعضها فى الصحف والمجلات العربية على وجه الخصوص.. لا زوج ولا ولد ولا عزوة ولا سند، فلا أقل من أن أقدم شيئًا إلى وطنى العربى الذى يشبعه سمير سخرية بالأدلة والمنطق لشدة يأسه من احتمال نهضته من جديد.

وكلما شعرت بالوحدة صببت غضبى على سمير فيقول لى:

- لا تلقى علىّ باللوم، فخجلك الشديد - سابقًا - هو الذى أضاع منك حبيبك وليست دعابتى معه بشأن إشهار إسلامى لأتزوجك.

إن مراسلاتى القليلة لحليم صادق - أعز أصدقائى فى مصر بأسرها - هى الرباط الوطنى الحميم الذى يصلنى بجذرى والذى يشفينى من شدة الحنين الذى لا ينقطع إلى الوطن، بعد أن أصبح من المستحيل أن أعود إليه تاركة حياتى هنا، لأعانى من اغتراب أشد قسوة مما أعانيه الآن.

حاول سمير مرارًا - قبل أن يتزوج - إقناعى بحياة متحررة نحياها معًا بلا زواج مثلما فعل سارتر وسيمون دى بوفوار على حد قوله، على الأقل يؤنس كل منا الآخر فى غربته، ولكنى آثرت الحرمان ودفنت روحى وجسدى فى الكتب.

وليت رسالتى قد وصلت إلى قومى كما أريد وأحلم وأتمنى.. إنى أشك فى ذلك تمامًا، فأنا أقول وأكتب وغيرى يقول ويكتب ومازال العرب يغطون فى نوم عميق وكأنهم ينفذون بروتوكولات حكماء

صهيون تنفيذاً حرفيًا متقنًا بأكثر مما تصور اليهود أن تكون دقة التنفيذ.

قلت يومًا لسمير وأنا في قمة الغضب :

ـ تخيل أن هناك ما يقرب من أربعة ملايين لغم منبثة في أرض مصر بالعلمين حيث تحارب الأغراب عليها وتركوها تائهة بلا خرائط، والنتيجة بوار مليون فدان من الأراضي الزراعية وضياع ثروات معدنية وبترولية ومياه جوفية لا تقدر بمال، فضلاً عن مئات القتلى والمشوهين كل عام.. هل رأيت إلى أى مدى يصل احتقار الغرب لنا؟!

تجاهل قولي بخبثه الظريف الذى اعتدته وقال :

ـ وهل رأيت اهتمام فقهاء مصر هذه الأيام بقضية الرجل ذى الفرعين؟

ـ بماذا تهذى؟

ـ إن الجرائد مازالت مختلفة حول حكم الرجل إذا كان يمتلك قضيبًا بفرعين وجامع امرأة من قُبلٍ ودُبر في آن واحد.. فهل يجب عليه أن يغتسل مرتين؟!

بم أفادتنى الأموال اليوم وقد دخلت أبواب العقد السادس وفيم أنفقها وهى مكدسة فى البنوك، وأنا لست بحاجة إلى المزيد من طعام أو شراب أو سكن أو كساء. سوف يأتى يوم أكتب فيه قسطاً كبيراً من ثروتى لأبناء حليم : محمد وفاطمة بعد أن صارا شبابًا بحاجة إلى المساعدة. أنا أدرك أن حنان أبيهم وعطفه ومودته وطيبة قلبه النادرة تعوضهم عن ملايين الجنيهات. وأشعر من خطاباته أنه يتمتع بقدر كبير من الإيمان يجعله واثقًا فى كرم الله وعطائه فلا ينعى للمستقبل همًا، وإنما يواصل حياته السعيدة مع عايدة والأولاد فى أمان وبلا قلق على المستقبل رغم أن يديه فارغتان بحكم وظيفته الحكومية العظيمة والتى ينطبق عليها المثل الشعبى الدارج «الصيت ولا الغنى».

قارنت وضع حليم الفنان المثقف بما قرأته عن قصر سلطان بروناى الذى يُقدَّر بنصف مليار دولار، فعرضت الجريدة على سمير وسألته الرأى فى تلك المقارنة السخيفة. أجاب ساخراً:

ـ أنصحك بالزواج من هذا السلطان والانضمام إلى حريمه ودعى عنك هم الكتب والعذرية.

فجأة سألته:

ـ اسمع يا سمير.. لماذا لا نعود إلى مصر؟

ـ من؟

ـ أنا وأنت وأسرتك.

ـ لماذا؟

ـ لنعيش بقية عمرنا وسط أهلينا.

ـ هل تتصورين حال مصر الآن أم أنك تطلقين الكلام على عواهنه.

ـ صف لى تصوراتك أنت.

ـ يقولون إن مصر أغنى دولة مفلسة فى العالم، تجمع بين اشتراكية من النمط القديم وإصلاحات تتمشى مع السوق الحرة، وبين حكومة شبه مفلسة وثروات خاصة طائلة.

ـ من هؤلاء الذين يقولون ذلك؟.. المصريون؟

ـ هذا قول دبلوماسى غربى فى حديث له بصحيفة لندنية.

ـ إنه كاذب ومغرض.

ـ لدى دليل بسيط على صدقه.

ـ ما هو؟.

ـ ما ذكرته لى منذ قليل عن الحالة الاقتصادية لأسرة حليم الموظف المفلس الشريف وكل من على شاكلته.

ـ رغم ذلك فأنا أفكر جدياً فى العودة للعيش بين أهلى ووطنى.

ـ لكن الأمر يختلف معى.

ـ لماذا؟

ـ الإرهاب.

ـ الإرهاب ليس قاصراً على الأقباط وأنت تعلم جيداً.

ـ لدى فكرة جيدة.

ـ ما هي؟

ـ غداً موعد الدكتورة مريم مع الدكتور على الفيتورى لاستلام أوراق تعيينها بجامعتكم المدللة الشبيهة بفنادق الخمسة نجوم.

ـ وما شأن هذا بموضوعنا؟

ـ نشركها في الحوار فمعلوماتها عن مصر الآن وفيرة وربما أفدنا من آرائها.

ـ أراها متشبثة بأمريكا ولو لا بقية من حياء لأعلنت كراهيتها لمصر بسبب اغتيال شقيقها.

ـ ضعى نفسك مكانها فربما التمست لها بعض العذر ولا أقول كله ●

(٢٥)

سمير زخاري

١٩٨٨

طال انتظارنا لخروج الدكتورة مريم - الحزينة حتى الموت على شقيقها - من مكتب الدكتور على الفيتورى. كنا نتحدث عن العلاقة بين الإرهاب والأديان الثلاثة. قالت مدينة إن الإسلام يرفض الإرهاب تمامًا مدللة على ذلك بآيات قرآنية مثل: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» و«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» وأكدت على أكثر من نص قرآنى يشير إلى المحبة الواجبة بين المسلمين وأهل الكتاب مثل: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين». قلت لها:

- ذلك شيء رائع.. وأقسم أننى أصدقه.

ثم لخصت لها ما قرأته فى نسخة من جريدة معارضة يقول فيها كاتبها المسلم(*) ما معناه «إن الأديان السماوية الثلاثة لا تتبادل التسامح والاحترام، من اليهودية التى أباحت السرقة من مال غير اليهود والزنا بغير اليهود واقتضاء الربا من غير اليهود، إلى المسيحية بقول المسيح عليه السلام: «أجبرهم على الدخول حتى يمتلئ بيتى» إلى الإسلام حيث يذكر النص القرآنى الصريح «ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه».. فكيف يمكن إذن أن ننفى اتصال العنف واستخدام القوة بهيكل الدين»؟!.

قالت مدينة بثقة إن كل هذا الكلام مردود عليه وأشعلت سيجارة وقالت:

(*) حسين أحمد أمين - جريدة العربى الناصرى.

-ادخل لتخرج المرأة المصرية من مكتب الرجل المصرى فقد تأخرت.
-لكن السكرتيرة فى دورة المياه.
-أدخل فوراً فالمصرى بعد أن تأمرك لم يعد يعبأ بهذه الشكليات.
فتحت الباب فجأة فهالنى ما رأيت. أغلقته على الفور وخرجت ألهث عائداً إلى مدينة وكأنى جريت عشر كيلومترات فى نفس واحد. نظرت إلىّ كالمصعوقة.
-ماذا حدث؟
-لا يمكن.
-ما هذا الذى لا يمكن؟
-الذى رأيته بعينىّ.
-هف.. وما الذى رأيته بعينيك لا تقرفنى.
-الدكتورة جالسة على حجر الدكتور وهو يعبث بصدرها فى استرخاء حالم.
-وهى؟
-صامتة لا تقاوم.
اندفعت مدينة ثائرة متجهة إلى المكتب..
-سأدخل لأمنع هذا العار.
ظللت جالساً فى ذهولى على مقعدى بالاستراحة. دخلت مدينة ومن خلفها جاءت السكرتيرة مسرعة لتحاول منعها بعد فوات الأوان.
خرجت مدينة مبتسمة فى عتاب واثق:
-ألن تكف عن ألاعيبك القذرة هذه؟
-ماذا رأيت؟
-الدكتورة جالسة فى أمان الله والرجل يناولها الورق وهى الآن تصافحه وستخرج حالاً

* * *

وجدت أنه من الأكرم لى ولمريم ولمدينة أيضًا أن أقبل على نفسى الاتهام بالألاعيب القذرة وأصمت عما رأيت، ولكنى أبدًا لن أصمت عن هذا أمام حليم لو قدر لى أن ألقاه يومًا.

* * *

خرجت وعلى وجهها علامات فرحة مكتومة لكنها طاغية، وتبدو حافلة بالتشفى من شيء ما.. دعتنا لتناول الطعام فى أحد المطاعم على نفقتها. كنت أتحاشى النظر بعمق فى عينيها كلما تبادلنا الحديث وكأنى أنا الذى كنت جالسًا على حجر ذلك الرجل المعتوه منذ قليل.

خلال الطعام والشراب صرحت لنا بأنها تخطط فى النهاية للهجرة إلى أمريكا وربما يسبقها إليها ابنها بشارة الذى قالت إنه لا مستقبل له فى مصر.

سألتها مدينة فى دهشة:

ـ وماذا عن الدكتور وفيق؟

ـ لو أراد الهجرة معنا فأهلاً به ولو أراد البقاء بمصر فليفعل ما يريحه.

قلت لها ساخراً من تناقضها يائسًا من صدقها.

ـ لكن وصية الزيجة المقدسة تقول إنه يجب عليك ألا تخالفى أمره ولا رأيه.

ـ هذا صحيح، ولكن إن كان له رأى.

ـ لكنك لم تقولى رأيك فى فكرة العودة إلى مصر حاليًا.

صمتت قليلاً ثم قالت:

ـ أحدثكم عن مصر ونحن نشرب الشاى.

وانطلقت فى الكلام لا يحدها حد ولا يوقفها مجرد تساؤل عارض.

أخرجت من حقيبتها صوراً من الميكروفيلم لعشرات الجرائد والمجلات المصرية ووضعتها أمامنا قائلة:

ـ ما سأقوله موجود هنا. وبالنسبة لك يا دكتورة مدينة فقد لا تكون

هناك مشكلة، أما بالنسبة لسمير وغيره من أقباط مصر فعليهم قبل العودة أن يراجعوا أنفسهم مائة مرة قبل ألا يجدى الندم.

ـ كيف ؟

ـ عليهم أن يعلموا أن الأمر العثمانى بالخط الهمايونى مازال يحكم أمر بناء كنيسة واحدة فى مصر.. هل نسوا حرق كنيسة الخانكة وضرب الكنائس ليلة عيد الميلاد عام ١٩٨٠ والبابا يخطب؛ هل يمكن أن ينسوا يوم ٥ سبتمبر ١٩٨١ حين اعتقل السادات أربعة وعشرين علمانيًا وثمانية أساقفة وأربعة آباء كهنة من الإسكندرية أحدهم كان ابن عمى.

قال لها سمير بهدوء:

ـ اسمعى يا دكتورة مريم. أنتِ بهذا المنطق لا تختلفين فى قليل أو كثير عن العامة.

ـ نعم؟!

معذرة لقولى ولكنى أريد أن أؤكد على أن المسألة أكبر من ذلك.

ـ ما معنى هذا؟

ـ أنتِ تعلمين أن كل دين يتباهى بنفسه، فاليهود «شعب الله المختار» ونحن «أبناء الله» والمسلمون «خير أمة أخرجت للناس» ـ تلك هى رؤية العوام لأديانهم، أما نحن فدورنا خطير لتفادى ما ذكرت من كوارث.

ـ إذن فاذهب إلى مصر لتمارس هذا الدور فى مجلس الشعب حيث يمثل الأقباط فيه واحد فى المائة من عدد أعضائه.. واحد فى المائة يا أستاذ.

قررت إنهاء الحديث معها على طريقتى فقلت لها بجدية أدهشتها:

ـ أقول لك الحق.. لقد مات أبى وتكاد أمى المسكينة أن تلحق به.. وتفرق إخوتى فى البلاد، ولكن حليم يوحشنى كثيراً.

ـ من حليم هذا؟! ●

(٣٦)

حليم صادق

١٩٩٣

يكاد العام الأول على التقائنا القدرى ينتهى وحُبنا حبيس عربتى أو عربتها أو التليفون الذى يصل بيننا لدقائق خاطفة. ينتابها رعب شديد كلما ذهبنا بأى العربتين إلى مكان مهما ابتعد عن قلب البلد. هى تخاف أن يرانا أحد. وأنا أخاف عليها من نفس السبب. يفسد التوتر اللقاء. نعجز عن الخلوة فى مكان آمن. كم أتوق إلى قبلة من شفتيها الحبيبتين فيحول كفها الحبيب دون ذلك. أهناك حب أعجز من هذا الحب؟.. إن حالنا من حال شجيرة الجوافة المحدودة الجذر غير المثمرة، القابعة على نافذة مكتبى.

لقد صرت أستعذب عذابى بها وأرى القرب حتى فى ابتعادها عنى، وأصبح عزائى فى حياتى الآن أننى أحب كل ما تحبه مريم وأرفض كل ما ترفضه،فأمنيتى الباقية هى أن أرضيها وأريحها وأسعدها كيفما شاءت.

إنها تمتلك أكثر من شقة فى المدينة، كما أنها تمتلك مسكنًا صيفيًا نائيًا يظل مغلقًا طوال العام إلا من أسابيع قليلة. لو كانت ترغب فى خلوتنا حقًا لألمحت لى ولو بإشارة عابرة إلى تلك الإمكانيات المتاحة لديها فى معرض حديث مناسب، حتى أجرؤ على مفاتحتها. ولو كنت أملك الجرأة حقًا لدعوتها إلى مصيف الأسرة بالعجمى والذى يظل مغلقًا هو الآخر معظم العام. إنى أخاف أن تسىء بى الظن فتهجرنى لو

طلبت منها أن أصحبها إلى هناك.. ولكن لأني خفت أن أموت قبل أن أقبلها فإنى سألتها بوجد عظيم:

- متى أتمكن من الاختلاء بك ولو لعشر دقائق؟

انفجرت فى ضحكة صادقة من القلب أراها على وجهها لأول مرة حتى أننى ذهلت.

- ولماذا تريد أن تختلى بى؟

- أريد أن أضع رأسى على صدرك وأحتويك بذراعىّ ولا أنطق حرفًا.. فقط أستمع إلى أنفاسى وأنفاسك.

- الله.. وما رأيك فى عرض عظيم آخر؟

أرأيت أيها الرومانسى الحالم السعيد كيف تقتحم النساء، فأنت تنوى منذ عامين ولا تقول. تقرر ثم تتردد. تريد ثم تتراجع. أنت تخشى عليها من أن تطغى عليك عاطفتك فتنقض عهدك.. مزيداً من الجرأة يا رجل ودعك من حيرتك وعذابك.. هاهى قد استسلمت لك فى لحظة.. لكنها واثقة من أنك صادق فى كل حرف نطق به لسانك وأنك لا تبغى من وراء ذلك غير تجنب عيون الناس، وإلا لما سمحت لك بإكمال تساؤلك الذليل عن عرضها العظيم!

وإذا بها تفاجئنى فى غمرة حيرتى قائلة بفرحة شديدة.

- إنى مسافرة غداً إلى القاهرة لأمر هام.

- خيراً؟

سألتنى بعينين باسمتين ماكرتين سؤالاً هو أمر لا رجعة فيه، وإغراء لا محالة من الاستسلام له:

- هل تأتى معى؟

- طبعًا.

- ألديك مصلحة تقضيها فى القاهرة ثم نعود معًا؟

- لا.. ولكنى آت معك.

ـ سأحجز في السوبرچيت تذكرة للساعة السابعة والنصف مساء.
ـ بل أنا الذى سيحجز التذكرتين.
ـ من المؤكد أننا سنكون في مأمنٍ من العيون لمدة ساعات ثلاث.
ـ هذا ما لم يركب معنا أحد يعرفنا.. ولكن ما هذا الأمر الهام؟
ـ لا تسأل كثيراً يا أخى.. ألا تكفيكَ صحبتى؟!

في السابعة كنت أقف بعيداً عن موقف العربة أرقب وجوه المسافرين. هل يعرفها أو يعرفنى أحدهم؟.. هل كتب على هذا اللقاء ألا يتم خشية الناس وعيونهم وألسنتهم ممن يحرمون علينا الحب ويحللون لأنفسهم التسلط ودس الأنوف في حياة الآخرين؟.. هل تأتى المصادفة بواحد، ممن فوضوا أنفسهم عن الإله فيبدأ بإذاعة السر بفحيح هامس في آذان الآخرين؟: «حليم ومريم يلتقيان في الخفاء».. «رأيتهما بعينى جالسين على مقعدين متجاورين في الباص المسافر إلى القاهرة. لابد أنهما ذاهبان لقضاء ليلة بأحد الفنادق بعيداً عن الإسكندرية. من المؤكد أنهما فقدا عقليهما. أيعقل بعد أن بلغا هذا العمر أن يرتكبا الفاحشة؟.. ألا يخافان الله.ألا يتقيانه في زوجيهما وأولادهما. أبلغت بهما الشهوة حد الجنون وقد نال كل منهما حظه من الدنيا فلم يشبع ولم يرتو وإنما يطمع في المزيد ولو لم يكن من حقه أو على حساب الآخرين.. أبهذه البساطة يمارسان الفسق والخيانة والفجور؟!...»

بعد ذلك يشاع النبأ بهذه الصورة القبيحة حتى يصل إلى الأصدقاء والمعارف ثم إلى الأهل والأقارب وأخيراً إلى زوجها وزوجتى، فتكون النهاية المدمرة التى يريدها الجبناء.. أم أننا نحن الجبناء لأننا نخافهم ونرتعد فزعاً من عيونهم وألسنتهم فنبذل المستحيل حتى لا يكتشفوا أمرنا وما هى الشجاعة لو كانوا هم أو كنا نحن الجبناء؟.. وما الحلال لو كانت مشاعر الحب النبيل البرىء أمراً محرماً، وما الحرام لو كان التجسس وسوء الظن وإطلاق الشائعات بلا سند حلالاً طيباً.. يارب لم

كتبت علينا هذا العناء؟..

لقد ملكت فؤادى يا مريم ولا يُسئل فى الحب عاشق عن السبب.. ملكت فؤادى فأصبحت أُنسى ووحشتى وسجنى وحريتى، ومادمت أنا أنت فلا يهمنى سجن ولا تعنينى حرية.. فقط منى علىّ بنظرة فاهمة لحالى حريصة على مآلى.

مازالت واقفة أمام حقيبتها بانتظار فتح باب الأتوبيس وعيناها شاخصتان فى الاتجاه الذى تتوقع قدومى منه. يامريم لا تخافى ولا تقلقى فأنا واقف من خلفك أحرسك بروحى وعينى خوفًا من بطشهم.

لم أر وجها مألوفًا من الركاب. كان معظمهم من المصطافين القادمين من خارج الإسكندرية. الحمد لله. علام تحمد الله يا رجل وأنت تعلم أنك تخالفه. الأولى بك أن تستغفره وتعود إلى بيتك محترمًا. الأجدر بك أن تعود إليه وتتوب إليه وتنهى على الفور تلك العلاقة المشبوهة. الأكرم أن تدع هذه السيدة المسكينة الضعيفة لحالها حتى تعيش فى سلام كما كانت قبل أن تستولى عليها بشياطينك النارية وكلماتك الساحرة التى أطارت عقلها وأطاشت بصوابها. أدركت بخبثك أنها لم تعرف الحب، فنفذت ـ وأنت الشيطان غير المرئى ـ إلى قلبها. رأيت الحياة تدب فى عينيها حتى صار لها بريق عذب بعد أن كان الموت راقداً فى أعماقها، فنسيت نفسك وتقدمت. رأيت الدماء فى وجنتيها وهى تتعثر فى خجل الفتيات وحيائهن. تجاسرت واندفعت واقتحمت غير عابئ بدنيا أو آخرة. شيطان آدمى ملائكى يمس بشفافيته الجهنمية نبضات قلبها المتعطش إلى الحياة والحب فيكهربه ويشعل فى دمائه النيران. جريمة كاملة تحمل وزرها أمام الله وحدك. شعورك بالذنب يكفى لتحليل خطايا البشر.. «وهكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية».

فتح الباب. تحرك الطابور ومازالت مريم تبحث عنى. بعد خمس دقائق تتحرك العربة. يبدو أنها يئست من حضورى فبان على وجهها الحبيب حزن عميق أسعدنى.

تسللت من ورائها دون أن تدرى وصعدت. جلست على مقعدى أنتظرها لأستمتع بوقع المفاجأة على وجهها البرىء. «عظيم هو سر التقوى».. فلماذا لا تكون حقيقة الأمر معكوسة فى خيالك الساذج الذى أفرزته نواياك الطيبة وأسفر عنه غرورك الأحمق؟!

إنه عالم مختلق من صنع تصوراتك الواهمة. أنت وحدك صانعه بمعزل عما ينطوى عليه صدرها من أسرار لم تبح ولن تبوح بها إليك أبدًا. ما أنت إلا غرّ أخضر العود منتفخ بذاتك المتضخمة فلا أنت شيطان ولا ملاك. لست أنت المقتحم الجسور كما تجزم وتقطع. لست ذلك المجرم الذى تثقل به على نفسك فتحملها بالذنب والندم والقلق والإشفاق على الضحية. ما أنت إلا مخدوع بنظرات عينيها الثاقبة المستكينة. الحالمة الجريئة. الوديعة القاسية. أنت أسير لسحر هاتين العينين العسليتين الغارقتين فى الصمت والتأمل. ترى فيهما نجمتين وفى ذراعيها جناحين وفى قلبها نهرًا يفيض بالحب وفى كلماتها أعذب أغنية فى الوجود. أليست هذه «الملاك الطاهر» التى صنعتها هى نفس السيدة التى تخلت فى لحظات عن حياتها الطويلة مع زوجها المعطاء ووهبت قلبها لحب رجل جديد ببساطة من يطفئ عقب سيجارة فى منفضة؟!.. أترضى أن تفعل عايدة بك هذا؟.. أتتصوره؟ أيمكنك أن تتخيل حدوثه ثم تقبله حين تدرك أنه بات أمرًا واقعًا؟. أين المنطق فى فكر المرأة حين تحب وحين تخون ولو حتى بقلبها؟.. إنها تستغل براءتك التى لا تدرى أنت بها عن نفسك. تتعمد الصمت والتدلل حتى يزداد عذابك وانصهارك فى حبها بلا أمل.. تتعمد التمنع وتعمد إلى الإبطاء فى الاستجابة إليك حتى تدخل فى روعك وفى يقينك أنك ذئب

جارح برع في اقتناص حمل وديع. الملاك الذى جسّده خيالك البائس ما هو إلا امرأة تعرف ماذا تريد كيفًا وكمًا.. في البداية اختارت الرجل المقتدر الناجح كزوج يضمن لها حياة مرفهة. أنجبت له وسافرت معه إلى الشرق والغرب فتمتعت عيناها بكل مباهج الحياة الدنيا حتى نضب معينه وقد أعطى كل ما عنده فشرعت تفكر في الحصول منك على ما كان من المستحيل أن تحصل عليه بين أحضانه.

وانكببت على وجهك أيها الفارس المغوار الصنديد الذى لا يشق له في عالم النساء غبار.. انكببت على وجهك يا مسكين والندم يأكل قلبك لأنك تخالف تعاليم دينك وتدفعها - يا عينى - إلى مخالفة تعاليم دينها فتحمل ذنبها وذنبك على كاهلك وحدك وينوء صدرك بعذاب لا يحتمله بشر.. وملاكك يا صغيرى لا يدرى شيئًا عما يفور بداخلك ويكويك ويحرقك مهما أبدى لك من تفهم وتعاطف بكلمات لا تصدر من الفم وإنما من العينين، ومهما أتقن أداء دور الضحية المغلوبة على أمرها، الواقعة تحت سطوة رجولتك وفحولتك وذكائك وعنتريتك...

ولكن.. ما يمسك يمسنى يا مريم، فروحى وروحك خمرة مُزجت بماء زلال حتى صارتا روحًا واحدة، وحتى لم يبق في قلبى وأحشائى جارحة لا تنبض باسمك الحبيب: مريم.. مريم.. مريم.. مريم..

هاهى تتهادى كمليكة في الممشى الطويل بالعربة وقد وقعت عيناها عليك. أذابتك ابتسامتها الحنون فأحالتك إلى قطرة من الندى وأفسحت لها كى تجلس على مقعدها بجوارك فما أجملك أيتها اللحظة العبقرية تمهلى ولا تمضى سريعًا إلى قاع الزمن السحيق. تمهلى حتى أسعد بفرحتك وأفرح بقدومك السعيد، فما أسهل فناء عمر الفرحة وما أسرع اندحار لحظات السعادة.

إلى الجحيم أيتها الأفكار البشعة والظنون السوداء. كيف يجرؤ خيالك يا حليم أن يفكر بعقل سمير زخارى؟.. إن الحب عدو الفكر

فكيف تضعهما معًا فى عقلك مرة وفى قلبك مرة فلا تطول الدنيا ولا تطول الآخرة.

ما أن جلست حتى فاح عطرها فى دمى. احتضنت ابتسامة ثغرها النبيذى المعبود، فانسابت فى دنياى جداول الماء وغردت العصافير وضحك القمر وصدحت الموسيقى فى قاعة المسرح الرومانى وسمعت دندنات من أنغام الشرق شجية باقية لا تعرف الفناء.. ولن يمحى هذا اللقاء من خاطرى مادمت حياً.

فى دمى أنت يا مريم وبين جلدى وعظمى. لم يعد بقلبى متسع لغيرك، أهيم فى بحر هواك الأعظم بين أمواجه العاتية القاسية ترفعنى وتهوى بى ثم تقذفنى إلى شاطئ صدرك الحنون الذى أحلم أن يتلقفنى لحظتها فتعود إلىّ طمأنينة قلبى وسكينة نفسى، ولا تسكن خاطرى حينذاك إلا فكرة واحدة هى ألا أفقدك يوماً فتظلين متربعة على عرش قلبى تبثين فى أرجائه أنوارك العطرة.

سألتها إن كانت قد فقدت الأمل فى حضورى فأجابت فى دلال بأنها كانت واثقة من مجيئى.

نظرت إليها فى امتنان ومودة حين قالت فى ارتباك مضحك:

ـ ماذا أفعل بنفسى؟.. ماذا لو رآنا أحد الآن؟

ـ ربنا يستر.

ـ ما نفعله هو الجنون بعينه.

كانت لهفتى إلى كفها طاغية، فوضعت يدى على المقعد فى المسافة الضئيلة الفاصلة بيننا، لكنها لم تنتبه فقلت لها بحروف منومة:

ـ هاتى كفك.

نظرت إلىّ فى حيرة من المفاجأة. ترددت قليلاً لكن كفها الصغير لم يعبأ بترددها فأسلم نفسه لراحتى التى احتضنته فى رفق وامتزاج. ما أن تلامسنا حتى سرى فى جسدى لهيب مقدس يشعل القلب والعصب

فيثير دخانًا يعبق برائحة ثمار الجنة. كانت تصل إلى مسامعي وشوشة أناملنا وهي تتناجى في رقة هامسة، وأنفاسها تتهدج في انفعال لا يعرفه إلا الصمت.. ذابت خلاياها في خلاياى تحت جلودنا وكان نبض عروقها البارزة يدفع بالدماء في عروقي ونور العربة الخافت يعزف على كلمات الخلايا لحن الحياة الأولى عند بدء الخليقة. كانت السنابل تهتز طربًا في حديقة حبنا الصامت الممنوع وكان الليل رائعًا ترقص فيه الكواكب وتغنى النجوم.. يا إلهى.. أهذا حرام؟!..

آه لو أحببتنى يا مريم كما أحببتك.. سوف أتنفس حبك في طلوع الشمس وغروبها. سأتكلم بلسان حبك في صمتى وفي نطقى. ولسوف أذكرك فرحانًا وحزنانَ. سعيداً وحيرانَ. ومائى حين أشربه فهو مريم وهوائى حين أتنسمه فهو من هوى مريم - إنى يا حبيبتى أحبك فوق الحب.

ازدادت إضاءة العربة فجأة فانتفضت مريم في فزع تسحب كفها بسرعة من يدى لكنى تشبثت به في قوة وخيل إليها أن ركاب العربة بلا استثناء يرقبوننا ولا يعنيهم من الدنيا في تلك اللحظات غير مراقبتنا.

- لماذا؟

- كفى إنى مرتبكة جداً لما أفعله بنفسى.

يا مريم ما تفعلينه بنفسك أو أفعله بها أو بنفسى أصبح أمرًا فوق إرادتنا ورغبتنا وقدراتنا، فالحقيقة أننا تلاشينا ولم يعد أمرنا بيدنا وقد سلمناه للقدر. نحن الآن عابدان في صومعة الحب المباركة. على العقل أن يستريح فحديث خلايانا لا شأن له به لأنه لا يدركه. كونى على ثقة يا حبيبتى أن لحديث العقل لغة ولحديث خلايانا لغة، وأن جن سليمان لو اجتمعوا على ترجمة هذه إلى تلك فلسوف يعجزون.

.. وساد صمت طويل.

اخرجى عن صمتك يا مريم ودعى متنفسًا بقلبى لأشجانك فأنا ملاذك الأخير. لا تترددى فإنى عزمت على انتزاع الحزن من قاع عينيك وقرار قلبك، وأقسمت أن أزرع الفرحة فى روحك.. تكلمى يا مريم.. لم تعذبيننى وأنت منيتى؟.. تدنينى منك بوصل فأحسب أنى أقرب الناس إليك، وتقصينى عنك بفصل وأنت حاضرة وأنت غائبة فأكاد أفنى فى حروف اسمك الساكنة فى روحى وترديد أنفاسك الذائبة فى شرايينى.

- لم أعد قادرة على الذهاب إلى الكنيسة للاعتراف بسببك.

لم أكن على دراية كافية بأصول هذا الطقس الدينى المسيحى فسألتها بتلقائية:

- بماذا تعترفين؟

- أتجهل أن حبنا خطيئة؟

- آه.. هذه قضية أخرى.. ولكن لمن تعترفين.

- للقسيس طبعًا.. أبونا.

كانت دهشتى صادقة حقًا حين قلت لها متسائلاً:

- ولماذا لا تتجهين إلى الله مباشرة بلا وسيط؟

صمتت قليلاً ثم قالت وقد أحسست أنها أخفت إجابتها الحقيقية:

- هكذا وجدنا آباءنا وأمهاتنا.

- وهل يمنع هذا أن تتجاوزى العبد إلى الرب مباشرة؟

لم تجب وأدركت أنها تشعر بحرج شديد فقلت لها:

- إن رب الأديان واحد فلم لا تفعلين مثلما فعلت أنا؟

- وماذا فعلت؟

- اتجهت إليه فى صلاتى خاشعًا دامعًا منتفض الجوارح داعيًا له أن يقينى ويقيك شر نفسى.

- أنا واثقة من صدق نواياك لكنك لن تكون ملاكًا إلى الأبد.

ـ لهذا لا أكف عن الدعاء حتى يظل حبنا طاهراً.

ـ عدنا إلى القضية.

ـ نعم وأنا أعلم أن كلينا يعانى شعوراً بالذنب تجاه زوجه والزوج الآخر.

قالت بحماس صبيانى وكأنها تصيدت لى خطأ قاتلاً:

ـ شفت.. كل منا إذن يعذب نفسه.

ـ وما الحياة بغير عذاب الحب؟

ـ مهما بلغ نبل مشاعرك ومهما اتحدت روحانا فى الخيال، فالحقيقة باقية وهى أن كلينا متزوج.

أمسكت بيدها ضاغطًا فى حنان على أناملها الأنيقة المستسلمة لقبضتى فى وداعة، وجال بخاطرى مشهد نسر يلتهم عصفوراً فتساءلت: لماذا تأخر هذا الحب علينا طويلاً ثم جاء بعد عشرات السنين يستبد بنا ويأمر وينهى كيف يشاء؟.. نقلت إليها تساؤلى وأنا أقبّل يدها فقالت:

ـ نحمد الله على ذلك وإلا لكانت كارثة مؤكدة.

ـ لماذا؟

ـ ألا تعرف؟

ـ كان من الممكن أن نتزوج.

ـ بافتراض إمكان تحقيق مثل هذه المعجزة المستحيلة فإجابتى هى الرفض.

ـ لماذا؟

ـ لأنك كنت ستحب امرأة غيرى بعد ثلاثين عامًا من الزواج بى كما يحدث اليوم.

أردت أن أقول لها مداعبًا.

ـ أو تحبين أنت رجلاً غيرى كما يحدث اليوم؟

لكن لســانى شـل عن الكلام حـتى لا أمس مـشـاعـرها بـأدنى قـدر محتمل من الإساءة.

.. عاودت الإمساك بيدها والتزمنا الصمت. سمعت صوت أنفاسها تتتابع فى عناء، ولن أكون نعامة بعد خمسين عامًا من الحياة لأنكر أن الجنس فاعل موجود ومؤثر فى هذا التلامس، ورغم هبوط حدته بحكم العمر فإنه يبدو أكثر خطورة وأشد فتكًا وتدميرًا، فالمنحنى آخذ فى الهبوط والدنيا جذابة فاتنة مثيرة ساحرة لعوب، والاختيار الحاسم القاطع الباتر بينها وبين الآخرة صار أكثر استحالة فى زماننا من لمس القمر. جال بخاطرى تشبيه أحد الفقهاء للدنيا وخداعها بأنها قحبة حسناء تغازلك وتشير إليك وترغب فيك حتى إذا أجبتها ودنوت منها صاحت بالوالى وصرخت بالناس وأسلمتك إلى الفضيحة وزودتك الندم وعض الأنامل من الغيظ.

قلت لها دون أن أدرى.

- إن حبك يملأ قلبى ويفيض.

- هذا من فعل الشيطان.

- كيف؟

- لأنه يأخذ مكان حب الله فى قلبك.

- لولا أن الله ساكن بقلبى ما رأيتك لأنه مملوء به.

وكنت حين أصلى أدعو الله أن يجعل الدنيا فى يدى لا فى قلبى حتى أزداد اقترابًا منه. وكنت إذا سألت قلبى هل مريم هى الدنيا تولت روحى عنه الإجابة فحار عقلى بينهما ولم أعد أعرف هل مريم فى يدى أم فى قلبى أم أنها تسكن الروح ولن تفارقها إلا حين يوافينى الأجل.

ولئن كانت تسكن قلبي العامر بحب الله فكيف بالله تسكن الدنيا والآخرة فى حيز واحد و«ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه» وأنت لا تستطيع أن تخدم سيدين فى وقت واحد.. وإن كانت تسكن

روحى فكيف أعصى أمر ربى وأحلم بشفتيها ذائبتين بين شفتى فى رحيق الحياة؟.. وإن كانت تقيم بيدى فهل يتسع قلبى لاحتواء كل هذا الحب بحيث لا تتسرب منه قطرة واحدة من بين أصابعى؟!.. وقلت لها:

ـ إننى أحبك لأن رب القلوب وساكنها ومحركها هو الذى أراد لى ذلك فأطعته ولو أراد لى أن أكرهك لما خالفته.

ـ أنا أعرف أنك لا تكذب ولهذا سأفسر قولك بأنه خلط غير متعمد يدل على سوء الفهم.

ـ سامحك الله.

ـ صدقنى يا حليم فالحلال والحرام لا يجتمعان.

غرقت فى حيرتى وتعثرت فى تناقضى فلم يكن أمامى إلا أن أسألها من جديد:

ـ وأنت؟.. هل تحبيننى؟

أومأت بنفس حيائها الرائع برأسها:

ـ أريد أن أسمعها منك.

ـ لا أستطيع قولها.

كان لابد أن أنزل من قبلها بمحطة على الأقل تجنبًا للمحاذير.. وقبل أن نفترق أردت أن أودعها بقبلة ولكنها وضعت كفها كالمعتاد بين وجهها وشفتى.. ونزلت مكسور الخاطر. بحثت عن مقهى قريب. شربت فنجانًا من القهوة وعدت إلى الإسكندرية بعد نصف ساعة من وصولى إلى القاهرة، دون أن أعرف إلى أين كانت ذاهبة! ●

(٢٧)

وفيق جرجس

١٩٩٣

كل حياتي معها مفاجآت لا تعلن إلا في حينها. هاهي تعود من سفرة مفاجئة إلى القاهرة ومعها قرار من كبار المسئولين بتعيينها مرافقة سياحية الكبار زوار الدولة من الرؤساء والزعماء. لست أدرى كيف تحصل مريم على كل ما تريد في زمن قياسي يشمل التفكير والتخطيط والتدبير والتنفيذ.

ـ وعملك بالمتحف؟

ـ كان آخر عهدى به بالأمس.

ـ وأين سيكون مقر عملك الجديد؟.

ـ في القاهرة طبعًا.

ـ وأنا؟

ـ أنت إيه؟

ـ هل أعيش وحدى في البيت وفي العيادة مع بركات بعد أن تركت الجامعة وبعد أن يسافر بشارة إلى أمريكا على غير رغبتي بعد أن أرضعتيه من لبنها وشحنتيه بحبها وتقديسها؟

ـ لو شئت أن تحضر بركات للعيش معك بالمنزل فلا بأس.

ـ وإلى متى يستمر هذا الوضع؟

ـ حتى أحقق رغبتي الأخيرة.

ـ وما هي؟

ـ من المؤكد أنك ستعرفها في حينها.

ـ ولماذا لا أعرفها الآن؟.. ألست شريك حياتك؟!

ـ أنا أقر بالشركة لكني على ثقة أنها تدير نفسها بنفسها دون ضرورة تواجد الشريكين معا في كل لحظة لإدارتها.

ـ هكذا؟

ـ نعم. إنها شركة راسخة عتيقة. ألا تعرف أن عمرها الآن واحد وثلاثون عاما؟ ●

(٢٨)

بشارة وفيق جرجس

١٩٩٣

يقول الإنجيل «الله محبة» وأبي وأمي غير متحابين. يعلموننا في المدرسة أن الدين لله والوطن للجميع، فأجد من يحتكرون الله لأنفسهم وكذلك الوطن. يقولون إننا جزء مهم من الكتلة الإنسانية الحضارية للمصريين تختلف كلاً وجزءاً عن أكراد العراق وبربر المغرب ودروز إسرائيل وأرمن لبنان، ثم يحددون حركتنا في حدود معينة لا ينبغي لنا أن نتجاوزها. يقول القرآن «لا إكراه في الدين» و«جادلهم بالتي هي أحسن» فأرى بعيني أن المجادلة بالرصاص وأنه وإن لم يكن هناك إكراه على التخلي عن ديننا فإن هناك ما هو أسوأ من ذلك.. أن يجعلوك لا تطيق البقاء في وطنك حين تشعر أنك مواطن من الدرجة الثانية.

والحقيقة أنني قررت أن أستريح نهائياً من كل هذه المسائل، فطرحت الإنجيل والتوراة والقرآن جانباً ولم أعد أشغل بالي بمسألة الأديان على الإطلاق. أما الكنيسة فلم أزرها منذ تخرجي في الجامعة أكثر من مرات تتجاوز عدد أصابع اليدين.. وأما الوطن فلم يعد يعنيني في شيء إذ فقدت انتمائي إليه.

لم يبق إلا أبي وأمي ومجتمعي الصغير الآخر.. أبي اختار لنفسه أن يكون مسكيناً مغلوباً على أمره وتلك مشكلته. أمي اختارت أن تصنع لنفسها أمجاداً تعتقد أنها خارقة، بينما يخيل إليَّ أن دافعها الأوحد لصنع تلك الأمجاد هو تحدي المسلمين. أنا أحب أن أصنع لنفسي ما أحب. لهذا فقد تحررت من الله والوطن والوالدين، وأما ما دون ذلك

فقد عدمت أهميته بالتبعية.

الحسنة الوحيدة فى حياة أمى أنها فى ثورة حماس عارمة منذ قتل خالى أعدت لى كل شىء حتى أعيش أنا وابنى فى أمريكا إلى الأبد.

أما الشىء الذى لم أقله لها فهو أننى لا أتمنى أن تلحق بى - كما تتصور - لتعيش معى هناك .أريد أن أعيش وحدى. أبدأ حياة إنسان ولد من جديد، وليكن حظى من الدنيا كيفما يكون ●

(٢٩)

جولييت مقار

١٩٩٣

جاءنى وفيق شاكيًا من غرابة أطوار مريم وممارستها حياة تكاد تكون مستقلة عنه تمامًا. إنه يفتقد الأنس معها ويصفها بالجبارة متحجرة الفؤاد.

ماذا بيدى أن أفعل لكما يا مسكين وقد فقدت قرة عينى وولدى الوحيد ففقدت معه القدرة على الفعل والعطاء والإرادة والتمنى أو الرغبة فى أى شىء. أنا الذى تحجر فؤادى يا وفيق، ومهما قلت لك فلن تشعر بما أعانيه من حرقة وألم. منذ خمس سنوات يا وفيق والنار مشتعلة فى قلبى لا يخبو سعارها. دمائى تغلى بالحقد والمرارة وليغفر لى الرب عجزى عن محبة القتلة أو مسامحتهم.. لو كنت قادرة على أن أنتقم منهم لما ترددت. ولكن هاأنت ترانى فى شيخوختى الموحشة لا حول لى ولا قوة. لو كنت رجلاً حقًا لما جئت تشكو لى عجزك عن كبح جماح زوجتك التى دمرت كيانها منذ الليلة الأولى التى جمعتك بها. دعك عنها أيها الجبان واذهب وقاتل دفاعًا عن دم دانيال. لو ثأرت لدمه لتحولت مريم إلى خادمة مطيعة تقبع بين قدميك. إننى لم أجد ما أفعله فى ذلك اليوم الأسود غير الصيام لثلاثة أشهر متوالية حتى كدت أموت. إنه حقًا فعل سلبى لكنه أقصى ما كنت أستطيع فعله، فماذا فعلت أنت وماذا فعل الأقباط غير الاستنكار المتخاذل والصمت الأكثر تخاذلاً؟ إنى واثقة أن مريم تتحرك. تفكر وتقرر. دانيال مازال حيا فى

ضـميرها وهى تناضـل من مصـر إلى أمريكا إلى مصر ليعرف العـالم كله ما يحدث لنا . مريم لم تعد تضمر محبة تجاه مسلم أو مسلمة أما أنت فمعظم أصدقائك كانوا ومازالوا مسلمين، وكأن كارثة دانيال الحبيب لم تهز فى جسدك شعره.

ما حاجتك أيها العجوز الأهتم إلى امرأة تنام كل يوم بجوار جثتك المترممة بعفن الجبن والضعف والشهوة البهيمية التى راحت منك رغم أنفك ولن تعود إلى الأبد . كلنا نعلم أن الله محبة . ولكنى أعلم أنها لم تحبك ولن تحبك أبدًا فدعها تفعل لنا شيئًا يشفى غليلى، حتى يأتى يوم قبل أن يدركنى الموت أقيم سرادقًا أتقبل فيه العزاء فى روح دانيال حبيبى وقرة عينى.. اذهب.. اذهب ولا تعد ●

(٣٠)

وفيق جرجس

١٩٩٣

هاهى الرسالة السادسة والأربعون من الرسائل الفارسية لمونتسكيو، والتى أرسلها أوزبك إلى صديقه رعدى فى فينيسيا. أقرأها بعد أن ألهبتنى تلك الحرباء چوليت بلسانها الذى يقطر السم وكادت أن تطردنى من منزلها. شياطين الأرض تجوس فى عقلى. أريد أن أفعل شيئًا غير التردد على العيادة التى قل زبائنها لكثرة المستوطفات والمستشفيات الخيرية، ثم العودة خائبًا إلى بيتى.. حتى بركات الحداد صار يهرب منى وله العذر فأسرته أحوج إليه منى.. وسوف أزوره فى بيته غداً.

* * *

يقول أوزبك:

الإنسان يناجى ربه كل يوم بهذه الصلاة: مولاى إنى لا أصغى إلى المشاحنات التى لا تنتهى حول ذاتك وأرغب فى عبادتك كما تريد ولكنى كلما سألت رجلاً كيف أعبدك أراد أن أكون على مذهبه، وإذا شرعت أصلى لك لم أدر بأية لغة يجب أن أناجيك ولا على أى وضع ينبغى أن أكون، فأحد الناس يقول لى يجب أن أصلى لك قائمًا وآخر يقول صل قاعداً. وثالث يطالبنى بأن أجثو على ركبتى. وليت الأمر يقف عند هذا الحد فمنهم من يزعم أنه يجب علىّ أن أغتسل كل صباح بالماء البارد، ولقد حدث لى يومًا أننى أكلت أرنبًا فى نزل للقوافل وكان بالقرب منى ثلاثة رجال أفزعونى بأن أكدوا لى أنى اعتديت على حدودك اعتداء بالغًا ورأى أحدهم أن الحيوان كان دنسًا وقال الثانى إنه كان مخنوقًا وقال الثالث إنه لم يكن سمكًا. ومر بنا

برهميّ فرجوته أن يقضي بيننا فقال إنهم مخطئون لأنه يبدو لى أنك لم تقتل هذا الحيوان بنفسك فقلت له :

ـ وإذا كنت قد قتلته ؟ !

قال بصوت حاد :

ـ آه .. لقد جئت شيئًا إدًّا لا يغفره الله أبدًا ، ومن يدريك لعل روح أبيك قد حلت فى هذا الحيوان !

كل هذه الأشـياء يا مولاى أوقعتنى فى حيرة لا أجـد منها مخرجًا . ولا أستطيع أن أحرك رأسى إلا وأنا مهدد بمعصيتك ومع ذلك أبغى رضاك وأبذل فى ذلك حياتى التى ظفرت بها منك . وليت شعرى هل أنا مخدوع ؟ إننى أعتقد أن خير وسيلة أبلغ بها رضاك أن أكون مواطنًا صالحًا فى المجتمع الذى نشأت فيه وأبًا صالحًا للأسرة التى وهبتنى إياها .

باريس فى ٨ شعبان ١٧١٣م

* * *

إنى أعلم أن هذه المجموعة من رسائل مونتسكيو تخص عالم الخصيان فى بلاد الفرس وهم شخصيات فقدت رجولتها ، فالرجل الخصى يعيش فى حسرة حين يرى النساء وهو عاجز ، ويعانى من حقد شديد وهو يقدمهن لأسياده .. وأعلم أننى أصبحت أدير شئون حياتى بشخصية الخصى الذى استمرأ التلذذ بالإذلال والعبودية .. لقد أصبحت على استعداد كى أبذل حياتى فى سبيل الطلاق من مريم !

* * *

وأصل إلى الرسالة السادسة عشرة بعد المائة والتى يقول فيها أوزبك لصديقه نفسه :

إن تحريم الطلاق لا يقضى فقط على حلاوة الزواج بل إنه كذلك يحدد نهايته فإنهم إذ يريدون بتحريم الطلاق إحكام عقد الزواج يعملون على حله ، وبدلاً من أن يربطوا به القلوب ـ

كما يزعمون ـ فإنهم يفصلون بينها إلى الأبد.

* * *

من ذا الذى يدلنى على رابطة واحدة أبقت عليها مريم لتربط بينى وبينها.. حتى ابنى الوحيد أبعدته عنى.

* * *

وفى العقد الذى ينبغى أن يكون حراً إلى أبعد مدى وأن يحسب فيه للقلب حساب كبير استعمل المسيحيون فيه المضايقة والإلزام وتحكموا فى مصائر الناس ولم يحسبوا حساباً لتنافر الأذواق ولا للنزوات ولا لعدم توافق الأمزجة. لقد أرادو أن يثبتوا القلوب على حال واحدة بينما القلوب هى أكثر الأشياء فى الكون تقلباً وتغيراً.. وربطوا من غير تردد ولا أمل بين شخصين يضيق كل منهما بصاحبه، متنافرين أكثر أوقاتهما، وهم بذلك يفعلون فعل الطغاة الذين ربطوا الأحياء بأجساد الموتى.

لا شىء يؤثر فى العلاقة الزوجية كرخصة الطلاق، فالزوجان يتحملان متاعب الحياة الزوجية ويحملهما على الصبر علمهما أنهما يملكان فى أى وقت أن يضعا حداً لنهاية هذه المتاعب بالطلاق، وهما يحتفظان بهذا الحق غالباً مدى الحياة ولا يستعملونه لسبب واحد، هو شعور كل منهما بأنه حر يستطيع أن يستعمله متى شاء.

إنه من الصعوبة بمكان أن يفهم المرء جيداً الباعث الذى حمل المسيحيين على إلغاء الطلاق.. إنهم لا يقيمون الزواج على أساس اللذات الحسية بل على العكس من ذلك.. يبدو أنهم يريدون أن ينفوا عنه هذه اللذات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وهذا خيال ورمز وشىء مبهم لا أفهمه مطلقاً.

باريس ١٩ شعبان ١٧١٨م

* * *

آه يا مونتسكيو.. لماذا لا تبعث من قبرك بمعجزة ربانية خارقة لتنقذنى من مريم؟!.. لقد جعلتنى هذه المرأة أكره حياتى ●

(٣١)
حليم صادق

١٩٩٣

ظللت أنتظر حضورها إلى المتحف حتى قرب موعد الانصراف وكل جوارحى تعيش معها فى تلك الساعات الثلاث التى أمضيناها معًا فى العربة إلى القاهرة، وخطوط كفها ماثلة أمام عينى وهى تحول بين شفاهنا حتى لا تلتقى. لم تشأ كعادتها أن تطلع أحداً على أسرارها فلم أعرف لماذا أو إلى أين ذهبت فى القاهرة لذلك الأمر الهام. آه يا قلب من أشغال أسقمتك بها مريم فأسكرتك بين الرجاء والخوف والأمل والفرحة والقرب والصد والهجر والوصل.. ولكنها أبداً لا تريد أن تطفئ نارك المقدسة فأغدو كأنى لم أكن يومًا أو كنت، ولكنى لم أدر أننى كنت أو لم أكن.. آه ياقلب كم أبكى عليك منك. وأنت الذى لم تُخلق إلا لمريم.

دق جرس التليفون برنين طويل يدل على أن المتحدث من خارج الإسكندرية:

- مريم؟.. أين أنت؟
- مازلت فى القاهرة.
- ومتى تعودين بسلامة الله.
- لا أستطيع أن أحدد لك توقيتًا معينًا.
- وما السبب؟.. ماذا تفعلين هناك؟
- أتفق على وظيفتى الجديدة مع وكيل أول الوزارة.

ـ أية وظيفة.

ـ مرافقة لكبار زوار مصر من رؤساء وزعماء الحكومات والدول المختلفة.

ـ ولماذا لم تخبريني قبل سفرك؟

ـ خشيت أن أغضبك أو أن تحاول التأثير عليّ بالبقاء معك في المتحف.

ـ معنى هذا أنك لن تعودي إلينا.

ـ للأسف.

ـ هكذا؟!

ـ هكذا..

توالت ضربات قلبي المكلوم في عنف وكادت دموع المر كله تنهال من عينيّ.

ـ والعمل!

ـ في أي شيء؟

ـ أنا وأنت.

ـ سأعطيك أرقام تليفونات العمل والإقامة.

ـ وكيف نلتقي؟

ـ تأتي إليّ في القاهرة.

ـ في القاهرة؟!

ـ دع ترتيب هذه الأمور لي ولا تنع هماً.

وصمت قليلا كيما أحاول امتصاص صدمتي. لكنها سارعت بإنهاء الحديث قائلة إنها «ستحاول» الاتصال بي خلال الأسبوع القادم لشدة انشغالها هذا الأسبوع في حل بعض مشاكل ابنها في أمريكا.

ما تعلمت الصبر يوماً إلا على يديك يا فاتنتي. صبرت على سحر طرفك الذي يضن عليّ بالبوح، وصبرت على خمر ريقك الذي لم أذقه

حين كان كفك.. صبرت على صبرى فكان هذا منتهى سؤلى. يخيل إلىّ أننى لو لقيت حتفى لأجلك فلن أعرف الندم.. وما الذى بيدى أن أفعله الآن غير أن أصبر على ابتلائى فتلك إرادة ربى الحكيم العادل، ومن يدرى فربما جاءنى من الداء الدواء.. ومن يعلم يا مريم غير العليم العلام.

لم أجد بديلاً عن كتابة رسالة عاجلة لها على عنوانها الجديد بالقاهرة، أبثها فيها أشواقى وعتابى على مفاجأتها الأليمة، ولم يشأ كبريائى أن أصرح لها بأنها تستخف بحبى بل بكرامتى حتى تحدث تلك النقلة الكبرى فى حياتها وأكون أنا آخر من يعلم.

بعد أسبوع اتصلت بى معتذرة عن عدم الوفاء بوعدها فسألتها بلهفة:

- هل وصلك خطابى؟

قالت بسرعة آلية:

- نعم وقرأته وتأثرت به كثيراً.

- فلماذا لم تكتبى لى مادمت باقية فى القاهرة؟

- اعذرنى يا حليم فأنت لا تتصور كم هو ضيق وقتى الآن.

- ....

- عندما نلتقى فى الإسكندرية سأوضح لك كل شىء.

وفى عجالة لمحت لى بالإشارة إلى رغبتها فى إنهاء الحديث.

إنى حين أكتب إليك يا مريم فإنما أكتب إلى روحى، فالحروف والوريقات تفصل بيننا، والحق أنى ملتصق بك غير منفصل، ولو بعدت عنى إلى أقاصى الصين، وحتى حين تهملين كتاباتى ولا تردين فإنى أرى فى صمتك إجابة، فإجابتك لى هى ذاتها كتابتى إليك. وهل أنسى ماحييت يوم إن قلت لى فى دلال كاد يذهب بعقلى:

- هاه.. أجبنى الآن عن السؤال الذى يخطر ببالى فى هذه اللحظة

والذى أريد معرفة إجابتك عنه.

وكانت إجابتى عن صميم السؤال الذى خطر ببالك ووصفتنى بالعبقرى، فهجرك يا مريم حب وحبك يا مريم قرب هو البعد وبعد هو القرب فالهجر والحب والبعد والقرب والفصل والوصل كلها تتساوى عندى، فأنت للعين عينى وأنت للقلب قلبى وهكذا أراك حين أرانى فلا يؤلمنى الهجر ولا يؤرقنى الصد مهما أضنانى السؤال ومهما أنهكتنى الحيرة.. آه يا مريم.. لو تعلمين كم أوحشتنى يا حبيبتى! ●

(٣٢)

الدكتورة مدينة محمود

١٩٩٣

وصلني خطاب من حليم، لم يهزني خطاب من أعماق مشاعرى مثلما هزني هذا الخطاب وأدهشني وأهاج مشاعر غربتي وأثار في قلبي شجناً عميقاً. قرأته بمزيج من الانبهار والغيرة واللهفة والتعجب.

بدأ الخطاب بعتاب شديد لسمير أرجعه إلى سببين متباعدين أولهما: أن سمير دائم التحامل على مريم وأنه لا يقدر أحزانها ولا يلتمس لها الأعذار، بل إنه يكاد يصرح بأنها لا تتورع عن ارتكاب أى خطيئة فى سبيل تحقيق مآربها، بدلاً من أن يشفق عليها ويتعاطف معها ضد ما تعانيه من ظلم واضطهاد.. وثانيهما: أن أم سمير أصبحت فى مسيس الحاجة إلى رؤياه وقد تدهورت حالتها الصحية إلى درجة الدنو من الموت.

أبلغت سمير على الفور بهذا المضمون من الخطاب، لكنى لم أطلعه على بقيته احتراماً لرغبة حليم فى ذلك.

وكانت دموعى تنساب فى غزارة طوال قراءتى للخطاب..

«صديقة عمرى مدينة..

هل تتصورين يا مدينة.. لقد سمحت لى مريم أن أقبلها لأول مرة. لم تضع كفها حائلاً بين شفتىَ وشفتيها.. لا.. إنى لم أقبلها. مريم هى التى قبلتنى. لا. إنها لم تقبلنى، بل إن قبلة العمر هى التى جمعت بين ثغرينا فذاق كل منا رحيق عمر الآخر وارتشف من خمر روحه. أنا لا أكاد أصدق نفسى يا مدينة. ماذقت فى عمرى كله أحلى وأروع من

تلك اللحظات التى جمعت شتات عمرى وشظاياه فأبصرت نفسى طيفًا من الحب يذوب فى أوراق الأشجار وأنغام الفجر وأناشيد الطيور وعقود الفل والياسمين وقطرات المطر وقلوب الناس الغرباء وغير الغرباء.

أرحت رأسى على صدرها فرأيت يقظتى فى منامى واندثارى فى تجمعى وضلالى فى هداى وعجزى فى قوتى ودائى فى دوائى.. يا مدينة لقد رأيت الله على صدر مريم، وإياك أن تخبرى مخلوقًا بذلك. لقد أفنيت عمرى فى انتظار تلك اللحظة العبقرية التى يتجلى فيها معنى الحياة وجدوى الحياة ونعمة الحياة.

هأنذا أستعيد قدرتى على روعة الدهشة وجنون الفرحة الطاغية التى لا تعرف للعمر سنوات.. دهشة تستبد بى كطفل. تغتال الوقار والشعر الأبيض وحكمة الليالى والأيام. فرحة كالزلزال ولكنها تغمر الروح بنفحة نورانية من الجلال والرحمة. إنى لم أشعر بالرغبة فى الطيران بل لقد طرت بالفعل وحلقت فى السماء وكانت كل خلية من خلايا جسدى ترتع فى بحور النشوة، وكل نبضة من نبضات قلبى تسكب النور والمحبة على الكون وخالقه الأعظم الذى منحنى تلك اللحظات الشفيفة فأجلسنى على القمر وأطلعنى على سر من أسرار جماله القدسى. آه يا عينيها العسليتين المذهبتين وهما تغمضان من النشوة - سبحانك يا بديع السماوات والأرض.. إنى أسمع موسيقى تنساب من ثغرها الحبيب وأشعارًا تتغنى بها الملائكة عن لؤلؤها المصفوف.. وأنفاسها الحارة التى بددت ضباب أيامى الماضية، وتركتنى نائمًا على صدرها. هائمًا فى حلمى بأيامى الآتية بالزهر والعطر والندى وبريق النجوم.. وهى تربت بأنامل كفها المعشوق على ظهرى وتتحسس بها شعرى فى حنان أنسانى التراب الذى تعفرت به مرتين، والشقيق المسكين الهارب بالأموال، والأخت الحبيبة المهاجرة والزميل

الواشي والزوجة الوفية المخلصة والأبناء محمد وفاطمة وخمسين عامًا ولت عاما وراء عام.

كفك يا مريم بلسم جرحي. كفك يا مريم وهو يتحسس رأسي يسكب في وجداني مشاعر أمومة حلوة ضاعت مني. كفك يامريم وهو يربت على صدري وخدي يجعلني أجوب البحار والمحيطات وأتلو الصلوات وأبكي. مريم تلعق دموعي يا مدينة وتقول لي «لا تبك يا طفلي الحبيب فأنت تذكرني بأبي الراحل لأنك حنون مثله.. طيب مثله.. صادق مثله».

هل تصدقي يا مدينة أن مريم قالت لي بصوت مسموع: `

- أحبك يا حليم!!

سمعتها منها بأذني في غرفة مكتبها الأنيقة بالقاهرة بعد أن شغلت منصبها الجديد، ودعتني لزيارتها بعد أن استحال حضورها إلى الإسكندرية.

قولي لسمير ألا يحدثني عنها مرة أخرى، سواء في مراسلاته لي أو حين يحضر لوداع أمه لو كان ينوي الحضور.

* * *

جففت دموعي ولم أستطع مواصلة قراءة الخطاب. كاد ريقي أن يجف لكثرة ما دخنت من سجائر، وكدت أسمع صوت أنفاسي المتلاحقة وأنا أستريح من تعب ما قرأت!

من أنا وما جدوى وجودي على قيد الحياة.. بالله ماذا أفعل هنا ولماذا وإلى متى؟ إني مدينة حزن كاملة، أحتاج منذ عصور إلى شاطئ أبكي عليه أمواجي فلا أجده. أحتاج إلى رجل يجمع أشلائي ويسقيني القهوة ويدخلني في داخله.. مللت أرصفة الطرقات ومقاعد المقاهي ومنصات الندوات والمجلات والجرائد والمقالات.. أهيم منذ سنوات في طرقات واسعة بمدن عديدة بلا هوية أطارد المجهول.. أبحث عن بحة صوت

إنسـاني أرتاح لنبراته.. أنا حقًا مدينة للحزن والحرمان صنعتها بيدى وأضـعتها بإرادتي. وأنا أقرأ هذا الخطاب يلح عليّ هاتف فى أذنى وفى ضميرى وفى كل جوارحى: أنت يا مدينة، مدينة خربة مقززة. أنت لا شيء. أنت إنسانة قد ماتت منذ زمن طويل لكن جثتها مازالت تتحرك، فالعطن والتحلل والتعفن مازال بداخلها.. ولم يبق إلا القليل حتى تستحيل إلى رمّة ترتع فى بدنها الديدان..ووعدت إلى قراءة بقية الخطاب.

* * *

نسيت نفسى أسبوعًا كاملاً بالقاهرة. أذهب إلى مكتبها طائرًا كل صباح. نشرب القهوة معًا ويعيش كل منا فى حضن الآخر لحظات قبل موعد حضور الموظفين. حتى تستأذننى فى بداية العمل وأضطر إلى الانصراف على موعد للقاء فى المساء بأى مكان عام.

ماذا فعلت بنفسك يامدينة فى ذلك المنفى اللعين؟! تعالى إلى مصر لتحبى رجلاً أو شيئًا أو زقاقًا أو حقلاً أو ترعة. عودى إلينا لأحكى لك كيف يتعثر بريق عينى مريم الحبيبة بالحياء فى أرجاء قلبى حين تلثم شفتاى خدها النضير وأتحسس بأطراف أناملى تلك الهالة الساحرة تحت عينيها فيتفجر الورد دمًا فى شفتيها وأسمع فى قلبى دقات قلبها ينبضان معًا حبًا وشوقًا وحنانًا ولهفة. حين أخفى رأسى فى صدرها كعصفور خائف يرتعد من صقيع الشتاء، أستريح من زمانى وأعطيه الأمان فأشعر بالدفء وأخف وأتلاشى وأسبح نشوانًا فى عبير حبها العطر.. أكلمها وتكلمنى - من بعد صمت طويل - بينما يقف من خلفنا تاريخ ومن بيننا تاريخ ومن أمامنا تاريخ، لكنا لا نعبأ بشيء فقبلاتنا هى الأبقى هى الزمن هى التاريخ.

* * *

وأيقنت بعد انتهائى من قراءة الخطاب أننى أختنق.. ولكنى أريد الحياة! ●

(٣٢)

فاطمة حليم صادق

١٩٩٤

العلاقة بين أبى وأمى تحيرنى وتثيرنى بحيث أجد نفسى فى كثير من الأحيان عاجزة عن تصور الأسلوب الأقرب إلى الصواب الذى ينبغى أن أتعايش به مع زوجى المستقبلى.

اليوم مثلاً وجدت أمى - وقد كانت نائمة صامتة مكدرة خلال سفره المفاجئ لمدة أسبوع دون تبرير واضح - تستقبله بتهليل شديد وترحاب أشد، لكنى استبصرت الكذب فى نبراتها وهى التى لا تخاف شيئًا ولا أحدًا، وبالتالى لا تجد نفسها مضطرة إلى الكذب أبداً.. هى فى هذه الصفة شبيهة بأبى ولكن من منطلق آخر أكثر واقعية.

أمام المبالغة فى الترحيب أصيب أبى بارتباك شديد جعلنى أكاد أنفجر فى الضحك، خاصة وأن نظرات عينيه - بمجرد فتح الباب - كانت طافحة بشعور عظيم بالذنب يخالطه شعور آخر بالخوف من أمى كما لو كان يتوقع منها أن تقذفه بغطاء حلة عقابًا على طفشانه المفاجئ.

ولأن أمى تصادقنى من حين لآخر فإنها تبوح إلى ببعض أسرارها ومواجعها. إنها تكاد تجن لعجزها عن العثور على المرأة الخفية الغامضة فى حياة أبى. وأكرر لها قولى القرآنى عن ثقة.

- يا ماما «إن بعض الظن إثم».

- أنا واثقة فأنا زوجته وحبيبته وأفهم من يمكن أن يفهمه على وجه الأرض.

- فأين تسكن أو تعيش إذن؟

- لو كانت من الإنس فهى فى القاهرة، فقد كثر تردده عليها بسبب

وبلا سبب فى الأيام الأخيرة.

-أيعنى هذا أنك تشكين فى عشقه لجنية.

-لا أكذب عليك أن هذا الخاطر راودنى أكثر من مرة.

انفجرت فى الضحك متسائلة:

-ومن أين أتيت بهذه الفكرة يا باشمهندسة؟

-عثرت فى مكتبته على ما يقرب من عشرة كتب عن الجن.

-ليس غريبًا على أبى أن يقرأ فى أى شىء وأنت تعلمين ذلك.

وما بين نبرات أمى غير الصادقة وارتباك أبى الطفولى فوجئت بأمى تجلسه فى حنان على أقرب مقعد وتناولنى حقيبته لأضعها فى المكتب وتطلب منى أن أعد وعاء كبيراً مليئًا حتى ثلثيه بالماء الساخن والملح.

* * *

كان أبى مستسلمًا فى لذة رائعة لأصابع أمى وهى تدعك له قدميه وتدلك أصابعهما بحنان مرددة حمداً لله على سلامتك دونما أدنى محاولة لاقتحام مسألة السفر. ثم جففت قدميه وقالت بمحبة حقيقية:

-ستخرج من الحمام لتجد العشاء جاهزاً.

لمحت بريق الدموع فى عينى أبى وهو يدخل الحمام مطأطئًا رأسه ثم رأيت الدموع تتساقط من عينى أمى بعد أن أغلق من خلفه الباب.

فوجئت بها تقول لى وهى تحتضننى بحنان بالغ:

-طفلى مريض يا فاطمة وأجدنى عاجزة عن علاجه.

ذهلت لما تقول. ظننتها تتحدث عن محمد.

-أى طفل يا ماما وأى مرض؟!

* * *

ويتراكم عذابى فوق عذابها لأن خوفى الشديد عليهما معًا يمنعنى من مصارحة أمى بالحقيقة!

* * *

كنت عائدة بصحبة خطيبى من زيارة اجتماعية، وقد أصر على أن نتمشى معًا عبر الشوارع والأزقة حتى المنزل حيث كان مدعوًا للغداء معنا.

وموقع منزلنا يتوسط تقاطعات عديدة وتفريعات شوارع ضيقة أشبه بالحارات الشعبية بحيث يمكن الوصول إليه من أكثر من سبعة أزقة.

أما الذى حدث فإننى - بفلاحتى ونباهتى - اخترت زقاقًا محددًا لنختصر منه الطريق إلى البيت. كان خاليًا من المارة. لكننى لمحت عربة تشبه عربة أبى واقفة فى منتصف الزقاق بجوار الرصيف الأيمن وكأنها عطلت فجأة.

دققت النظر فى ركابها دون أن يلحظ خطيبى فتأكدت أنه كان أبى. لكنه لم يكن يصلح العربة بل كان يحاول تقبيل امرأة ذات شعر كستنائى وهى ترفض بشدة واضعة يدها بين وجهيهما فى مقاومة ملحوظة حتى خشيت أن تصرخ فتسبب العار لأبى ولى ولأسرتنا جميعًا وتجلجل فضيحتنا فى الشارع!

كانت صدمة عمرى الكبرى التى لم تتكرر صدمة فى قوتها بالنسبة لى حتى الآن. أهذا هو أبى الوقور المحب الطيب الحكيم العليم العاقل؟.. أهذه بوادر شيبة الرأس والدخول فى سن الحكمة كما يقولون؟. ماذا يختلف ما يفعله أبى الآن عن مراهق شاب؟ إن خطيبى لا يجرؤ أن يضعنى ويضع نفسه فى مثل ذلك الموضع المهين فى منتصف شارع مجاور لبيته. أهذا معقول يا حليم يا من أنت أبى القدوة والمثل؟.. وفى وسط الشارع وفى عز النهار؟!

كدت أندفع لأتبين ملامح هذه المرأة المعتدية على حق أمى غير أن اندفاعى راح بالطبع إلى الاتجاه المعاكس وإلا رآه خطيبى.. لكن شيئًا من

ملامحها لم يغب عن ذاكرتي حتى شاءت الظروف أن أمر يومًا على أبي في المتحف فرأيتها هناك.. ومنذ ذلك اليوم صار هناك حائل ما يفصل كثيراً بيني وبين أبي الحبيب.. حائل من الضباب والعتاب ودموع الألم.

إنها هي يا أمي، تلك المرأة التي قلت لي إنها قناع وأن زوجك إن أحب فإنه يحب قلبًا وروحًا لا عقلاً وقناعًا. فكرت أن أحكي ما حدث لمحمد عشرات المرات ثم تراجعت ومثلها لك ثم تراجعت. ويبدو أنه كان إلهامًا إلهياً لأنها غارت في داهية تاركة هذا الموقع إلى غير رجعة بإذن الله.

قالت أمي في حرقة وقد طال غيابه في الحمام.

- روح أبيك لم تعد معنا يا فاطمة.

- إسمعي.. حتى لو صدق حدسك، فهي نزوة وتذهب لحالها.

- ومن يضمن لي ذلك؟

- هذا يحدث لمعظم الرجال في هذا العمر وأنت أدرى.

- لكننا متحابان.

- نعم أنا أعلم. ولكن هناك ما يسمى بالحب الثاني أيضًا عند كثير من الرجال والسيدات.

وعلى المائدة أتحفته بما لذ وطاب من مأكل ومشرب وراحت تمطره بالقبلات وتربت على ظهره في مودة صادقة.

* * *

في الصباح كانت أمي حزينة قلقة شاردة كما لو كانت أبي، أما أبي فكان منشرح الصدر نشيط الحركة ينشر المرح في كل مكان وكأن روح أمي قد حلت فيه. والحقيقة أني لم أفهم كيف يحدث هذا.

وحين قالت لي أمي أنها تجاهد بكل طاقتها الروحانية والجسمانية لمساعدته في اجتياز أزمته التي يخفيها عنها احترامًا لها وإشفاقًا عليها

بنفس قدر إشفاقها وخوفها عليه، قررت للمرة الأخيرة ألا أبوح لأحد بسر هذه المرأة.. ولكن آه.. لو شاءت الظروف أن ألقاها مصادفة.. فى أى مكان!

* * *

قال لى أبى بمرح:
- تعالى معى نزور أمى.
- ولماذا لا تأخذ زوجتك؟
- أنا وأمى نتفاهم بصعوبة فما بالك بهما معًا؟
- إذن فلنذهب جميعًا.
- لا مانع.
- ولا مانع أيضًا من أن نقبل منك دعوة للعشاء بالخارج احتفالاً بعودتك بالسلامة ●

(٢٤)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٤

فى اللحظة المحددة قدمت استقالتى. قامت الدنيا ولم تقعد فى الوزارة لمفاجأتهم بقرارى بعد انتهائى - فى الخفاء - من إعداد عدتى كاملة لأكون صاحبة شركة كبرى من أحدث الشركات السياحية فى مصر، وتعرف حياتى طعم الاستقلال والحرية والكرامة وعزة النفس.

هكذا حولنى الظلم والاضطهاد والقتل بغير ذنب وانتهاك الجسد بغير حق إلى خبيرة لعب بالحياة فى كل أدوارها. أكبر كبار الوزارة قدموا إلى مكتبى برجاء البقاء فى وظيفتى وكل له مقصده الذى يختلف عن غيره فأنا خبرتهم جميعًا مثلما خبرت جثثًا عديدة من قبل. واليوم ألقى فى نفس البئر بعدة جثث أخرى بلا رحمة ولا مبالاة، ولتعبق البئر برائحة العفن فهذا لم يعد يعنينى فى شىء. كل ما أردته حققته رغم أنف الجميع، قلت لك يا أمى سأفعل وفعلت، ولكن كان لابد أن أحرر نفسى أولاً. واليوم أعدك يا دانيال أننى سوف أفعل لأجلك مالم يخطر ببال قبطى من قبل، سوف يقتصر نشاط شركتى على السياحة فى أماكن الآثار القبطية بجميع أنحاء مصر ابتداء من القاهرة وانتهاء بالوادى الجديد. سوف يعلم كل سائح غربى يدين بالمسيحية مدى انتمائى وانتماء شركتى إلى الحضارة القبطية، وسوف أشرح لهم بكل وضوح موقف الأقباط فى مصر سياسيًا واجتماعيًا حتى يستريح دانيال فى قبره وتستريح أمى فى بيتها.. لكن أحدًا لن يعلم ما بداخلى ولن يشعر به ولو أقسمت على بشاعته بالأديان الثلاثة. إننى كائنة قتلت من داخلها. مزقت أحشاؤها بسكين بارد.

مزقتها أياد وعيون لا تعرف الرحمة وإنما تتقن البطش والاستغلال والشيء مقابل الشيء.. أياد وأرجل وعيون وجوارح لا تمتّ إلى الإنسان بصلة.. ولكن ماذا كان بيدى أن أفعل غير ما فعلت؟.. لا أستطيع القول إلا أننى استسلمت لقدرى بدلاً من أن أستسلم للهزيمة فأموت.

ما بداخلى لا يعنى أحداً سواى. إنى لم أصرح به ولم أفض بمكنون بعض مما بصدرى لحليم حتى الآن رغم أنه أول وآخر إنسان أحبنى وأحببته طيلة حياتى على غير ما كنت أنتظر أو أتوقع أو أحلم.

اليوم لن يجرؤ إنسان على التحرش بى أو محاولة ابتزازى بابتسامة صفراء كريهة الرائحة. حياتى أصبحت ملكى، ولا معنى لتقدمى فى السن فمازلت جميلة أتفجر حيوية ونشاطًا ورغبة فى عيون الرجال.

والآن.. الآن فقط يا حلوتى المعذبة مريم.. عليك بطى صفحات عمرك الماضية لتنعمى بسعادة حرمت منها طويلاً.. الآن.. الآن يا مريم.. فحليم هو الأمل الوحيد والباقى فى حياتك.. هو المعجزة التى باركك بها الرب. اذهبى إليه وادخلى فى عباءته ونامى تحت جناحيه وعبى من نعيم العشق.. من كأس محبته المترعة بالجمال والرحمة.

فيما مضى وتحت تأثير الروائح العفنة المنبعثة من البشر كنت تحسبين العشق مرضًا وضعفًا لا يعرفه إلا أرباب الفراغ والتسكع والرفاهية والضياع. فيما مضى كنت تحاربين بعقلك فكان من المستحيل أن يجتمع الحرب والعشق معنا عند من يحارب بعقله حرب وجوده وبقائه، فالعقل هو الحكمة، والحكمة شىء أما العشق فشىء آخر، وكان من المستحيل أن أفسر تلك الألغاز الملغزة لهذا الرجل الشفيف الطاهر الذى باع الدنيا وأحبنى، وإلا فمن أين لى أن أعرف كيف تكون نظرته إلىّ وما يقبع فى ضميره نحوى إذا ما عرف كل أسرار الهزائم التى أخفيها فى صمتى ونظرات عينى الشاردتين قبل أن أحقق انتصارى الحاسم والأخير لأحصل على حريتى فى وطنى وليس

فى وطن آخر . . أنت الآن يا حليم وطنى الوحيد والأخير .

***

حجزت جناحًا فى فندقى المفضل بالقاهرة وأرسلت لحليم أدعوه للحضور . . وقلت له فى الهاتف كلمات ثلاث :

- تعال لأسلمك قلبى .

وأمضيت أروع ساعات عمرى فى انتظار حبيب عمرى . لا يهمنى أن يبقى على وجه الأرض سوانا شىء إلى الأبد . كان وجودى عارًا بغير حبك يا حليم . تعال إلىّ يا مليكى فإنى أشتهى شمس حسنك قبل أن يسارع المغرب بالمجىء . أسرع يا يوسفى الكنعانى الحبيب ليكون أول طيرانى الحر على جناحيك . . أسرع فلقد كرهت الوجوه اللزجة والقلوب المظلمة وأصبحت أرغب فى الرقص والغناء والسكر حتى الثُمالة ، فرحة بحبك يا حبيبى ، «فلطالما قرعت بابى ولم أفتح . يالفظاعة خطاياى . يالقساوتى يالخسارتى . هل ضاعت الفرصة ؟ . ألا يعود إلىّ مرة أخرى ؟ ! » .

أنت الكائن الوحيد الذى لن أفكر له من أمامه أو من خلفه ، فأنت راحة العقل وواحته ، وأنت الطمأنينة التى لم أذقها من بعد أبى وأمى حتى يئست من بقايا وجودها فى استحياء على وجه الأرض . . «يارب اجعلنى كمريم التى جلست عند قدمى يسوع لتسمع كلمات النعمة ، بل ارفعنى إلى فوق فأتكئ مع يوحنا الحبيب على صدره . بل ارفعنى ليقبلنى بقبلات فمه» فأنا لحبيبى وحبيبى لى . . هأنذا أسمع صوت الحبيب ينادينى من فوق البشر «تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين وثقيلى الأحمال وأنا أريحكم» . . آه من حملى الثقيل يا حليم ، وكم أنا متعبة يارب . . «لماذا أدخلت نفسى فى تجارب الابتعاد فالتقطنى كل عابر» ؟ ! ! ! أنقذنى يا حليم ، «فمن يحبنى يحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلاً» ●

(٣٥)

محمد حليم صادق

١٩٩٤

شعرت بالخجل الشديد أمام خطيبتى حين سألتنى على محطة القطار عن تلك الصورة التى يقف فيها رجل بجوار أبى والمعلقة بالصالة فى المنزل. لكننى قلت لها بهدوء:

ـ هذا هو عمى الجبان نزيه.

ذهلت لسوء سلوكى الذى لم تعتده من قبل ونظرت إلىّ فى دهشة بالغة.

ـ لماذا تقول هذا الكلام عن عمك؟

ـ لأن دليلى الوحيد على عمومته هو هذه الصورة مضافًا إليها قول أبى إنه أخوه.

ـ لست أفهم.

ـ هل تتصورين أننى لم أره منذ طفولتى أكثر من مرتين أو ثلاثة، ولو رأيته الآن فى أى مكان فلن أعرفه.

ـ ما السبب؟

ـ أبى.

ـ كيف؟

ـ إنه حين يعجز عن التعامل بالمثل بصدق شديد مع أحد فإنه ينساه تمامًا.

ـ حتى أخاه!

ـ حتى أمه أحيانًا.

ـ أخشى أن تصير مثله يومًا، مالم تكن مبالغًا في التجني على أبيك .

ـ لا تخافي فرفضي لطبيعة العلاقة بينهما يدفعني إلى السلوك العكسي تمامًا على سبيل التعويض، وهاأنت ترين كم أحب فاطمة ولكن ما الذى جعلك تسألين هذا السؤال الآن ؟

ـ لأني أرى قلق المحبة الشديد في عيني أبيك وهو ينتظر قدوم القطار الذى يقل صديقه المهاجر منذ أكثر من ربع قرن . . إني أتصور أنه ينتظر شقيقًا لا صديقًا .

ـ إنه زميل عمره وهما يتراسلان طوال هذه السنوات وكل منهما يعرف دقائق تفاصيل حياة الآخرة، أما نزيه فكل ما نعرف عنه أنه أصبح مليونيرًا، ولا نعرف حتى في أى بلد يستقر الآن .

ـ إني لا أكاد أصدق ما أسمع، ولكن لماذا لم تحضر أمك معنا لاستقبال العم سمير زخارى .

ـ إنها تنتظره بالمنزل لاحتفاظها بمفاجأة له .

ـ أية مفاجأة ؟

ـ الدكتورة مدينة . . زميلته في أمريكا .

ـ هل جاءت تزور أمها هي الأخرى ؟

ـ بل جاءت فجأة لتقيم نهائيا في مصر . قررت ذلك في لحظة ونفذت قرارها على الفور . . وهي تعتبرنا جزءًا من أهلها في مصر، ونحن أيضًا نعتبرها كذلك، فهي الأخرى زميلة أبي منذ أيام الجامعة وكانت معيدته لمدة سنة دراسية .

ـ ولكن ما المفاجأة في الأمر بالنسبة للعم سمير ؟

ـ المفاجأة أنها أبلغته في أمريكا برسالة أبي عن مرض أمه مستخدمة التليفون، ثم نزلت على الفور فصفت حساباتها ومتعلقات عملها وحجزت الطائرة دون أن تخبره . . تم ذلك كله خلال أربع وعشرين ساعة .

ـ لكنها هنا منذ عدة أيام فلماذا لم يحضر هو الآخر معها ولو على سبيل صحبة السفر؟

ـ يبدو أن ظروفًا طارئة هي التي حالت دون سرعة حضوره فهو صحافي كبير هناك ومسئولياته كثيرة.

ـ ولكن ما فائدة حضوره الآن وقد ماتت أمه؟

ـ لم تكن هناك فرصة من الزمن لإخطاره بذلك فمسجل التليفون أخبرنا أنه قد سافر بالفعل إلى مصر.

ـ إذن فسوف نشهد فيلمًا تراچيديًا عنيفًا تبدأ لقطته الأولى بلقاء الصديقين الآن أو بعد قليل.

ـ هل تفضلين عدم مشاهدة الفيلم؟

ـ أبداً.. دعنا نتعلم بعض أسرار الحياة.

ـ أحبك يا كثيرة الكلام والأسئلة ●

(٣٦)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٤

هل هو غضب الرب يحل عليَ من جديد فيبدد فرحتي الأولى في الحياة؟!..

لماذا لم يوافيني حبيب العمر الأوحد في موعدي؟..

كلما اتصلت بتليفونه سمعت صوتًا غير صوته فأضع السماعة على الفور.

لماذا لم يطلبني ولو مرة واحدة يطمئني عن سبب غيابه؟..

نهبت الطريق الصحراوي في ساعتين. قالوا في المتحف:

- الأستاذ حليم في أجازة مفتوحة.

- لماذا؟

- لا أحد يعرف.

- هل هو بخير؟

- نعم ولكننا علمنا حين السؤال عنه أنه لا يغادر منزله.

يا إلهي.. هل شئت أن تعصمني من رؤيته مرة أخرى وإلى الأبد؟!.. مرة واحدة؟! ●

(٣٧)

محمد حليم صادق

١٩٩٤

كانت زيارة سمير زخارى لمنزلنا زيارة نحس كئيبة. فما أن غادرنا حتى اختلى أبى العظيم بغرفة مكتبه مستغرقًا فى الصلاة ليل نهار. لم يعد يأكل فوق ما يقيم أوده ولو بلقمة واحدة. غارقًا فى قراءة كتب المتصوفة الكبار التى تركها منذ عامين، دائم الصلاة وتلاوة القرآن ولا ينام من الليل إلا قليلا.

أمى تبكى على حاله ولا تستطيع أن تفعل له شيئًا. أنا أكذب ظن أمى تمامًا فى علاقة أبى بغيرها. إنه رجل يعيش فى شبع عاطفى فلا مبرر عندى لمثل هذا الظن. أبى صامت لا يتكلم. مدينة تركتنا بعد أن تعرفت على قريب لها سيتزوجها. حاولت قدر ما حاولت أن تدفع أبى إلى البوح بسره فلم تفلح. وعدتنا بزيارات تالية لكنها لم تعد. هى الآن تجرى بعربتها فى شوارع القاهرة وحواريها حبًا وعشقًا. تجلس على المقاهى الشعبية وتذكر فى الموالد وتوزع المال على الفقراء بسخاء. هكذا قالت لى آخر مرة. فاطمة تقترح على أمى أن تحضر طبيبًا نفسانيًا لأبى فهى واثقة أنه يعانى من حالة اكتئاب شديدة الحدة وتؤكد على ذلك كما لو كانت تعرف عنه شيئًا لا نعرفه نحن.

جاء الطبيب وعجز عن الحوار معه. كتب له أكثر من دواء يساعده على التخلص من حالته لكنه ألقى بالأدوية جميعًا فى القمامة وصاح فينا مرة واحدة:

ـ لست مكتئباً والله . .

سألته أمي في لهفة :

ـ إذن فماذا بك يا حليم . أتوسل إليك أن تصارحني بما يؤلمك .

ـ ليس بي إلا الخير كله فلا تجزعي ، وأرجوكم أن تتركوني لحالي فإني سعيد بذلك .

ـ كيف نتركك وقد أصابك الهزال لقلة الأكل وانكبابك على هذه الكتب الغريبة ؟

ـ أنا أشعر بشبع شديد من لقيمات ثلاث وكوب من الشاي أما هذه الكتب فهي حياتي القادمة .

ـ وملابسك لماذا لا تغيرها ؟

ـ ولماذا أغيرها ؟

ـ وشعرك وذقنك . . وعملك ؟ ! !

ـ إني مشفق عليك يا حبيبتي . اطمئني فسوف أعود إليكم قريباً بإذن الله .

صاحت أمي في لهفة .

ـ إلى أين تنوي الذهاب ؟

ـ لن أغادر مكاني قبل أن أعاود الحياة •

(٣٨)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٤

أهكذا يكون العمر كله خديعة يا حليم؟.. حتى أنت خديعة وأنت الصادق الوحيد الذى عرفته؟.. يا من لم أكن قبل أن أعرفك وأحبك إلا عبثًا ولن أكون من بعدك إلا العدم نفسه. هل دارت بى الأيام لأتسولك يا حبيبى؟.. كيف تركتك تذهب عنى وكيف كان بإمكانى ألا أتركك إلى عالمك القديم؟.. لقد حاصرتنى بحبك المستحيل وظللت أكثر من عام لا أصدقك، وعندما أحببتك تهجرنى ولا همسة وداع!.. هل أقتحم حصنك الهادئ لمجرد أن أراك يا حبيبى فأدمره وأجلب لك ولمحبيك البؤس والتعاسة؟.. أنا غير قادرة على ذلك مثلما أنى غير قادرة على السلوى وأنت لا تعرف الغدر، والرب أعلم بسريرتى فلن أشكوك غيره وقد راحت كلماتك الحلوة لى فصار ليلى أبديًا لا يعرف الصباح. لطالما عذبتك بشكى وصمتى حتى آن الأوان فتبدل الحال.. وما عليك لو أدميت جفونى أو أحرقت قلبى بغيابك!.. إنك لا تعرف الآن ولا تتصور مدى اشتياق روحى للقياك وقد ضاقت بى الدنيا بأسرها وأصبح بمقدورك وحدك دون العالمين أن تحيى مهجتى أو أن تحرقها، وإنى لراضية بما تود أن تفعله بى.. أين أنت وإلى متى أظل أنتظرك يا واحتى المفقودة وآخر آمالى الضائعة، وكيف تتنسم هواء الدنيا فى غيبتى أم أنك صرت ظالما؟.. «أحلفكن يا بنات أورشليم إن وجدتن حبيبى أن تخبرنه بأنى مريضة حبًا» ●

(٣٩)

حليم صادق(*)

١٩٩٤

وكأنك أيها الشاعر الخبيث دخلت فى سريرتى وأمسكت بقلمى وكتبت ما بضميرى وقلت:

انتهت قهوتنا وانتهى الحب الذى كنت أسميه عنيفًا،
عندما كنت سخيفًا وضعيفًا.

حذار يا شاعر فسريرتى من قدس أقداس الخالق الأعظم.. من قال لك إن الحب قد انتهى. لقد تحول يارجل. صعد من على حجر الدكتور الأمريكى المصرى عبر فضاء الأطلنطى إلى فضاء العليم القدير.

عندما كانت حياتى مسرحًا للترهات،
عندما ضيعت فى حبك أزهى سنواتى.
بردت قهوتنا بردت حجرتنا،
فلنقل ما عندنا بوضوح.
فلنقل ما عندنا.

وليبحث محمد وفاطمة عن عمهما ليحصلا منه على حقهما الذى أضعته عليهما بغفلتى بمريم وبكبريائى ونسيانى.

أنا ما عدت بتاريخك شيًا،
أنت ما عدت بتاريخى شيًا،
ما الذى غيرنى ما الذى حررنى.
بعد أن كنت أميرة.

(*) تداخلت بالمنولوج الداخلى للبطل بعض أشعار وأقوال كبار المتصوفة فضلاً عن قصيدة لنزار قبانى.

بعد أن صورك الوهم لعينى أميره.
بعد أن كانت ملايين النجوم فوق أحداقك تغلى كالعصافير الصغيرة.
ما الذى حركنى.
أهو سمير زخارى ووشايته بك؟ لا.. أهى صدمتى فى طُهرك وملائكيتك؟ لا..
كيف مزقت خيوط الكفن وتمردت على الشوق الأجير.
ما أنت بشاعر أيها الرجل وإنما أنت مجرم شعر.. الشوق الأجير؟!.. عليك لعنة محبتى يا رجل.. بحق التراب الذى أهيل على جسدى ما الذى أيقظنى.
ما الذى أرجع أيمانى إليَا.
ومسافاتى وأبعادى إليا.
بعد أن كاد الصدأ يأكلنى.
ما الذى صيرنى لا أرى فى حسنك العادى شيًا.
لا أرى فيك ولا فى عينيك شيًا.
بعد أن كنت لديا.
قمة فوق ادعاء الزمن.
عندما كنت غبيًا.
.. أنا لم أكن غبيًا لأن حدسى كان دائم التعقب لسر شرودها وصمتها وشدة حرصها وتحفظها حتى أننى أدركت مبكرًا أن مريم ليست مريم وظللت كما سأظل أحبها. لقد رسم كل منا للآخر على ورقة بيضاء موقع غرفة نومه فى بيته واتجاه رأسه وموقع قدميه وأطلعه على أى جنب ينام.. وما فى الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران ولا اعتدال ولا ميل ولا فرح ولا ترح ولا رقاد ولا سهاد إلا وهو مراد لك يا مولاى فأجرنى وأعدنى إليك.. ولا تظن يا سمير بعد أن أطلعتنى على الحقيقة أننى غاضب يسعى لانتقام أو حزين يبتغى سلوى

فإنى سأظل أذكرها كلما قال المؤذن «الله أكبر» وأذكرها حين تدق أجراس الكنيسة القريبة من بيتى وأذكرها حين أرى وردة أو أشم عطراً جميلاً أو حين أتنفس من مقام السلام فانشلنى من الوحل والتراب وأغثنى برحمتك يا خالق الحب والجمال. ألا تغفر لى تعثرى فى الطريق إليك عامين لا يساويان شيئًا في الدهر فسوف تظل فرحتى بهداياها البسيطة فرحة طفل يلهو مهرولاً على حافة جدول فى بستان مزدهر. يا مريم أنت إنسانة لن تتكرر فى حياتى فليس لى من بعدك إلا حياة أخرى أنتقل فيها من موطنى فيك إلى وطن جديد تستوطنين فيه. ورغم أنك تسكنين جسدى منذ آلاف الأيام فإنى ذاهب لأستوطن بك فى النور والعسل والحليب والماء المصفى بعد أن جرفنى نهرك فغسل ما تعلق بقلبى من أدران، ولولا أنى سمعت عنك ما سمعته من سمير وصدقته فى كل ما قاله وأثبته لما سموت بحبك إلى السماء فلقد قال إبليس عنى ليحيى بن زكريا عليهما السلام إن حليم صادق من أشد أصناف البشر وعورة عليه إذ يقبل عليه حتى يفتنه ويتمكن منه فيفزع حليم إلى الاستغفار والتوبة مفسداً عليه مخططه، ثم يعود إبليس إليه فيعود حليم، فلا هو ييأس منه ولا يدرك منه حاجته.. هو منى فى أشد العناء ولهذا فإنى ظننت مؤخراً أننى ربما كنت جنديًا من جنود الله يسلطنى بمريم على إبليس لأزيد من عنائه، ولهذا فلم يعصمنى جلالته من عشقها كما لم يفرط فى حبه لى فيسلمنى إلى عدوى وعدوه، وإنما تركنى هكذا الحين يأتى الموعد الموعود. النور. النور. النور. النور. وأثناء القداس يقوم الكاهن بعمل تحليل عام يسرى على كل الراكعين فى الكنيسة، وبالتالى يجوز قبول الغفران للجميع دون وساطة قس الاعتراف على أن يتم التناول بشرط الصيام فى الصباح وينام طيرى الأخضر الجميل فى قلبى وفكرى ومشاعرى وأيامى فتغمرنى الفرحة بجناحيه الرقيقين حين يرفرف حول روحى بنسمات الحب وأنغامه

الحالة «ومن لا يحب لا يعرف الله فالله محبة» وفى الخامس والعشرين من فبراير الموافق منتصف شهر رمضان المبارك من هذا العام وأثناء سجود المصلين فى صلاة الفجر بالحرم الإبراهيمى فى فلسطين المحتلة أطلق باروخ جولدشتاين الضابط الاحتياطى الإسرائيلى فى ظهورهم مائة وإحدى عشرة طلقة بعد عبوره حاجز الحراسة الإسرائيلى فقتل اثنين وأربعين مصليًا مسلمًا داخل المسجد، والغريب من جفاه الحبيب والغريب من واصله الحبيب وتغافل عنه الرقيب فإلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها وقال سيدنا الحبيب محمد بن عبدالله «من آذى ذميًا فقد آذانى».

وكل الذى يرجو نوالك أمطروا.

ما كان برقك خُلَّبًا إلا معى.

وأنا ملك الغفران على هذه الأرض من بنى آدم فمن أكون إلى جانب الغفار الحليم، ومن أنتم أيتها المخلوقات الغريبة كيف تقتحمون علىَّ خلوتى وماذا تريدون منى. أنا لا أخاف أحدًا ولا أعرف أحدًا ولا أريد شيئًا.

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت

أشكو من الطول ما أشكو من القصر

وفى طمأنينتى بالله متسع لبحور الأرض ومحيطاتها والحب والأمان لك ياعايدة والنجاح والفلاح لك يا محمد ولك يافاطمة.

وشغلى بها وصلت بالليل أو هجرت.

فما أبالى أطال الليل أم قصرا.

أم جلست على حجر الفيتورى وأخذ يعبث بصدرها فليس الصبر والأسى إلا لفحات من الشوق تصيب القلوب ومولاى يقول: «كنت كنزاً مخفيًا فأردت أن أُعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى» وأنا حين أحب مخلوقته مريم وأهيم بها عشقًا وولهًا فمن المؤكد أننى أحبه فى صورة كنز من كنوز مخلوقاته من آدميين وحيوانات ونباتات وجماد.. وقلت

من قبل فى خطابى إلى الدكتورة مدينة إننى رأيت الله لكننى لم أوضح لها كيف رأيته فى قلب مريم وروحها وفى بديع صنعه لجمال وجهها، ولقد رأيت ذلك كله بعين قلبى فصليت لله وسلمته قلبى وركعت وسجدت ودعوت وقرأت القرآن والإنجيل والتوراة وكل ما كتبه أهل التصوف الأطهار وأنا لم أحب إلا أنت يا عايدة فكيف أحببت غيرك دون أن أدرى ودون أن تدرى، وإلى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنا ظلها؟.

وغريب هذا الذى يقول إن الحب الأول ما هو إلا تدريب لا ينتفع به إلا ذوو الحظ من الواصلين، وإن العشق هو حسن الختام وإن الشفاء من الحب يسقم القلب.

وإن كنت بالغيب عن عينى محتجباً.

فالقلب يرعاك فى الإبعاد والنائى.

ومنذ عامين قال لى الهاتف:

- آن الأوان كى تتوقف وتفكر وتتأمل على أعتاب الراحة فربما كنت من الناجين.

الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. صدق الله العظيم، ولقد جئت - بعد عامين من الوصل وعامين من الفصل - لأضع وجهى على تراب قدم حبيبى، جئت حتى أعتذر عما قدمت يداى، جئت لأبدأ من جديد الخدمة فى روضته التى أبعدنى عنها بعدله.

جئت أقبس ناراً أضرمها فى أشواكى. جئت لأنفض الغبار عن كل ما جرى وأعتبر خيرى شراً من أجل حبيبى. جئت بعين باكية حتى ترى عينى ينابيع السلسبيل من حيث ذلك الذى سلبنى. أما الشعر الكستنائى فكان مستعاراً ومازلت وسوف أظل محتفظاً بخصلة منه قصتها لى للذكرى.. فقم. قم أيها العشق المجرد وابدأ الحب من جديد فلقد مت وصرت خالياً من إقرارى وأفكارى، ومالى بالمقتول حين يقول:

يا صاح ليس على المحب ملامة
إن لاح فى أفق الوصال صباحُ
لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى
كتمانهم فنما الغرام فباحوا..

دعونى يا أحبائى أبوح ولا تنشغلوا بأمرى ولا تخافوا علىّ.. أنا أعرف ما لم تبوحي به يا مريم فحبى لك جعلنى إياك، فأقول بلسانك الذى هو لسانى:

«ولقد صمت ظاهرًا لكنك تعلم أن فى داخلى أقوالاً دامية فى قلبى الجريح، فانظر وأمعن النظر فى وجهى أثناء صمتى حتى ترى فوق وجهى مائة ألف أثر من آثارك ولقد اختزنت هذا الغزل وأبقيته فى قلبى لأبوح به حين تجعلنى ثملاً بعينك الفاتنة، ويامن صمت عن قولك وافترقت عن إلفك كيف صرت حائرًا هكذا من عقلك الذكى. يا أيها الصمت كيف أنت مع هذه الأفكار النارية وعند الوحدة تكون الأفكار صامتة ومع الخلق فى حديث ولا يبوح أحد بسر القلب لبابه وجداره وربما تجد نفسك صامتًا لأنك لا ترى أحدًا قط جديرًا بقولك»..

- وأنت؟.. هل تحبيننى؟

- .....

- أريد أن أسمعها منك.

- لا أستطيع قولها.

وفى أمريكا سألتهما حبيبتى فى دهشة:

- من حليم هذا؟

وسأل مليك العشق المقربين عن ذاك الذى غاب. ذلك المهدم العاشق الحاضر عديم المثال أنا أنت أنت أنا. ذلك الذى رأته كلُّ ليلة محترقًا كأنه الشمع.. ذلك الذى سمع أناته كلُّ صبح تنفس. ذلك الذى تأججت نيران العالم من ناره منذ أن أخذ العشق يتلو عليه رقاه وينفثها

فى قلبه.. ذلك الذى هو مثل النبى جرجيس فى بلاء عشقنا قتل مائة مرة وصار شهيداً ثم ارتد حياً.

ـ مثلك لا يُنسى يا حليم.

النجدة يا مسلمين من ذلك الفاتن الثمل...

ـ هاتى كفك.

ومن أكون أنا والهواء والتراب والماء والنار ثملة به؟.. لا تقنطى يا مدينة يا مصرية العشق ولا تقولى إن العمر قد انتهى ولم يأت الحبيب فهو يأتى فى حين وفى غير حين فليس كل شىء يتأتى فى السحر، واللعنة على أمريكا ولتحل البركة على موالد العاشقين المداحين الله حى الله حى الله الله.. أنت فى قلبى يا مدينة جنباً إلى جنب مع عايدة ومحمد وفاطمة ومريم وزوجها وسمير زخارى وأمه والضفادع التى تنقنق فى الحديقة والحمار الذى ينهق فى الحظيرة والعصفور الذى يغرد على الغصن وأم كلثوم وهى تشدو من أجل عينيك عشقت الهوى قبل زمان كنت فيه الخلى. الله أكبر. نويت أصلى مائة ركعة شكراً لله على ما منعه عنى وعلى ما منحه فأنا لا أعرف ماذا أريد بى إلا فى حصيلته النهائية وهو الخير.. بسم الله الرحمن الرحيم «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه».. ولابد أن أذهب يوماً إلى الدكتور وفيق فى عيادته حتى أنظر فأرى ما بنفسى وأتأكد من حب مَحَبَتى.

ـ هل يعجبك هذا؟

ـ ماذا؟

ـ وجودنا معاً فى عربة على قارعة الطريق.

ـ يعجبنى ويدهشنى ويسعدنى.

ـ لاشك أننى أصبحت أتصرف كمجنونة بسببك.

ـ لكنك أجمل مجنونة رأيتها على وجه الأرض.

وقال لى : قل حتى أسمع فقلت أنا عبدك الذليل فلا يعلم قدر ذلى إلا أنت وأنا عبدك الفقير فلا يعلم قدر فقرى إلا أنت وأنا عبدك الضعيف فلا يعلم قدر ضعفى إلا أنت . فعدت على ذلى بعزك فأعززتنى بمعرفتك .. الله .. وعدت على فقرى بغناك فأغنيتنى بذكرك .. الله .. وعدت على ضعفى بقوتك فقويتنى بهدايتك وأمسكتنى فى هدايتك بمناجاتك فأنا الذليل بى وأنا العزيز بك وأنا الفقير بى وأنا الغنى بك وأنا الضعيف بى وأنا القوى بك . يا غياث المستغيثين أغثنى . أجرنى . أنقذنى.

ـ صدقنى يا حليم فالحلال والحرام لا يجتمعان.

لا كان وجدٌ به الآماق جامدة
ولا غرام به الأشواق لم تهج
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد
أوفى محبٍ بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق
لا خير فى الحب إن أبقى على المهج ...

هاهم أحبائى يطرقون على باب خلوتى وقربى وبعدى رغم تحذيرى ولكن رحمتى تسعدنى بسماع طرقاتهم.

محمد يناولنى رسالة مغلقة موقعة باسم مريم .. الحبيبة لا تريد أن تربك حياة أسرتى أو تخدش طوبة فى بنائها الذى تعلم كم أعتز به. يالرقتها وحسن ذوقها . لكن ما فائدة فتح الرسالة وما جدوى قراءتها مادام محتواها ـ أيًا كان ـ لن يغير من حالى إلى حال آخر يتصل بها عن قرب أو بعد ، وياعزيزى سمير .. «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر» .. و«قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم».

* * *

ما ذنب هذه المسكينة التى ابتليت بحبى فتسببت فى تعاستها بين أرجاء الكون؟!..

يا ويح روحى ومن روحى فوا أسفى.
علىّ منى فإنى أصل بلوائى.
كأننى غريق تبدو أنامله.
تغوثا وهو فى بحر من الماء.
وليس يعلم ما لاقيت من أحد،
إلا الذى حل منى فى سويدائى.

أيحدث لك هذا كله يا مسكينة ثم تبوحين لى بأدق تفاصيله التاريخية فى رسالة.. والآن؟!.

«هم يثقل على قلبى يا حبيبى ولن يحمله عنى سواك».. كان يكفيك علمى بما رواه لك سمير عنى فى أمريكا..

«ولكنى شئت أن أجعلك الكاهن الوحيد الذى أعترف له لأنك وحدك صاحب هذا الحق فأنت أصدق من عرفت».. فاعلمى يا مريم أنى مسيحك وكاهنك ومخلصك ومحبك الأبدى، وليسمو بك حديث غفرانى إلى الملكوت الأعلى ولتنفذ كلماتى فى قلبك لتذيب كيانك وتغتسلى وتتطهرى بدموعك الحارة فلقد اخترت النصيب الصالح ولن ينزع منك أبداً.. ولتعطرى يدى بالطيب ولتمسحى بهما شعرك الحقيقى وكفك الحبيب.

الآن يا مريم؟!.. الآن أو قبل الآن فأنا أعرف أنك لا تهتمين بما يقوله عنك سمير أو غير سمير.. ومن أين لأحد أيتها الحبيبة التعسة أن يعرف متى يحين أوان الأشياء؟!.. كل هذه الجثث الترابية تمرغت فى أوحالها المصرية والأمريكية.. يالصراحتك الرائعة المخيفة.. الغوث يا مغيث!!.. ولكن لا تجزعى يا حبيبتى فلقد قرأت اعترافك بكل جوارحى وبكل خلية من شعيرات أعصابى المرهفة.. وطلبت لك

الغفران وغفرت لك، وحملت عنك كل أثقالك وهمومك سعيداً راضيًا.. ويقولون إنى لن أعود إلى المتحف ولكنى سأعود، فأنتم لم تفهموا حقيقة هذا الإنسان الذى عشتم معه ولم تعرفوا دخيلته.

ـ من حليم هذا؟

أنىّ لك أنت نفسك يا من يسألون عنك أن تدرك عالم الروحانيين وأنت تتردى فى حكمة اليونانيين؟! إن لم تستطع التخلى عن هذه الحكمة فكيف تستطيع أن تكون جديراً بما فى الدين من حكمة وكل من يتمثلها فى طريق العشق فهو فى مجال الدين ليس خبيراً بالعشق.. أنا يا سادة أكرر لكم أننى قد تحولت من كرّة إلى كرّة، فمن عايدة إلى الله ومن الله إلى مريم إلى الله، ثم من كل شىء وفى كل شىء إليه.. أنا الآن أتحول من المتحف الرومانى إلى العيش الروحانى ولا رجعة عنه إلا إلى القبر وقال لى أريد أن أخرجك لترى زينتى التى بها زينتك وترى ملكى وملكوتى.. فطر إلىّ فإن لم تستطع فاصرخ إلىّ يا غريق.. هأنذا أصرخ طالبًا الغوث وثقتى مطلقة فى نجدة المجيب. وقم فى مقامك منى قبل أن أخرجك إلى ما أخرجتك إليه. إن ما تراه وما تسمعه إذا أخرجتك كل ذلك فى علمى ولم تعلمه فى مقامك الدنىء وتلك هى كرّتك الأولى فلا تأتنى بشىء مما أخرجتك إليه بنورى الذى أقمتك به بين يدى. وإننى سأخرجك إلى ملكى وملكوتى فى كرّتك الثانية بما لا تعلم.. الله!

ـ أهلاً يا آنسة مريم.

ساعة أقول ما كان أجمل صمتك وأروعه فيما مضى ولم أعلمه إلا من رسالة اعترافك، وساعة أقول ما أقساه من صمت وما أوجعه فيما كان وعلمته منك. ألا تطلبين من زوجك العزيز أن يعيرنى رسائل مونتسكيو ـ لأنى لم أعثر عليها حتى الآن ـ حتى أتعذب مثله فصورتى صفر، وأنا أريد أن أبحث مثله عن معناى.. وإنى برىء من دم دانيال

نفس براءتي من دماء الحرم الإبراهيمي فهذه الدنيا نفى وعليك بالبحث عن الإثبات.

ـ أهلاً.. مدام مريم.

فلا ترين في وجهه شيطانًا أسود ولا أنيابًا ولا أظافر، ثم تجتاحك النشوة بإزالة الوهم الذى وضعه لك.. اسمه سهل!!.. هه!.. وتضعين كفك في مواجهة وجهى!

إنها لا توفى لحبيب، بل تنفصل عنه فلا تجعل هذه المتقلبة ذات العشرة قلوب موطنًا لسرك إنها تصب الخمر وبدلاً منها تبيع الخل فلا تجعل تلك الحامضة ساقيك وخمّارك.. وأنا الذى كنت أكذب ما سمعته عنك أيام الجامعة فكيف استطاعت قدماك أن تحمل جسدك الطاهر وتقوده إلى مخدعه يا حبيبتى، ويا أيها القلب اهرب فإن ذوات الوجوه القمرية أسفرن بوجوههن من حجاب الغيب وهن ثملات ويعرفن طريق الدار، فإنهن لسن ثملات من الفساد ومادام العشق يلد فهم يلدن ومادامت الذاكرة موجودة فهن متذكرات لقوائم ترشيح الحزب والمراكز الهامة في الشركات القابضة الخالية من الأقباط ـ فيما عدا صدقة التعيين المرفوضة من كل كريم ـ وللخط الهمايونى والأثرياء الذين يتمسكون ببقاء ثروتهم في وطنهم معبد الروح هاكبتاح، فإيزيس وأوزوريس وحورس قد اختفوا بعد نكسة الخامس من يونية، وهن متذكرات أيضًا للتكفير والهجرة وحرق الكنائس وتعصب الأسر الجماعية في الجامعات والكنائس للتعبير عن سخطهم وغضبهم المشروع والخامس من سبتمبر ١٩٨١ ويجب عليك أيها الابن المبارك والأخ الحبيب المؤيد بنعمة روح القدس أن تتسلم زوجتك في هذه الساعة المباركة بنية خالصة ونفس طاهرة وقلب سليم، ولا مسئولية لأحد عن تخلف العرب غير العرب يا دكتورة ومن التناقض يأتى التكامل ومن التنافر يأتى التجاذب ـ آه عليك يا خيمتى وقد خيمت

عليك الحسرة فلم تطئك قدما مريم وإنما راحت تستعذب الشوك فى صدر حسن شحته يجرح صدرها الحبيب ويدنسه.. «تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقى. أدخلنى إلى بيت الخمر وعلمه فوقى محبة».

-بماذا تسمى وضعنا الحالى؟.

-زوجان متحابان بالروح مع إيقاف التنفيذ بالجسد.

لقد تزوجتها فعلاً بروحى وضميرى وأحاسيسى وأعلنت لها أنها صارت زوجتى الثانية.

-قمة الحرام حتى لو لم تتلامس أناملنا.

ولم أعبأ بقولك فتزوجتك وكان أطفالنا هم المشكلة فالأقباط لن يعترفوا بمن يرتد ولذلك سيلتزم الأولاد بدين الأب، وهم لن يعترفوا بارتدادك لو أسلمت وأنا أعرف أنك لا تكرهين الإسلام إذ رأيتك تدمعين بحرقة وأنا أقرأ عليك سورة مريم، والأولاد لو اختاروا دين الأم فسوف يتشتتون بين الدينين وتنفصم شخوصهم ولا يجدون بديلاً عن الهرب والهجرة، ولقد قال لك عميد الكلية يوماً:

-احتشمى فى ملبسك يا دكتورة.

-أنا حرة فى اختيار ملابسى.

-إذن فلا تأتينى شاكية من مغازلة أستاذك ومضايقاته لك.

-ولمن أشكو من يضطهدنى ويحول دون ترقيتى؟

وأجبرت يا مريم على ارتداء البالطو الأبيض الجميل وكنت أحسب أنك ترتدينه من باب الاحتشام الغريزى وكنت أحدثك دون أن تسمعينى وقد رأيتك فى هالتك النورانية جزيرة عشقى البكر فأقول لك: تعالى يا حبيبتى معى بعيداً عن غرور العالم فأنا مكتشف أرضك الساحرة. تعالى كما أنت «أحزينة أنا أعزيك. أمريضة أنا أشفيك. أمحتاجة أنا أعولك. أخائفة أنا أطمئنك. أباكية أمسح دموعك» ويا

فرحة عمرى يوم تعطفت علىّ قائلة:

ـ تعال لأسلمك قلبى.

وذهبتِ بى إلى الطبيب ليضع بين فخذيك قناعًا مستعارًا كالذى على صلعتك قبل أن يدركها الشيب يا أحب مخلوقة عندى. يا من أفنيت عمرى «أبحث عنك فى محاجئ الصخر فى ستر المعاقل فى شقوق الصخور وفى مخابئ طيات الجبال. هل أنت مهمومة؟.. ألق علىّ الرب همومك فأنا أعولك. هل أنت متعبة؟ تعالى إلىّ وأنا أريحك. أعليك مشقات؟ صلى.. أسمعينى صوتك» فسأظل أحبك وأصلى من أجلى ومن أجلك.

ويا مولاى إن كنت لا تريدنى فأنا أريدك بالروح وإن لم تفتح لى الباب فأنا مقيم على عتبته حتى الموت. وإلى أين أمضى على رأسى ولى قلب، وأنا وقلبى وجسدى مجرد ظل لميكى ومولاى. وحصلت على الأستاذية يا مريم. وعلى أمريكا يا مريم. وعلى المنصب الكبير ثم على شركتك الكبرى يا مريم، فافتحى الآن قبضتك السليمانية ولسوف تعرفين أنك لم تحصلى على شىء وأن كل ما حصلت عليه باطل الأباطيل وقبض الريح. لقد عجزت عن الحصول على أكثر مما عجزت أنا عن الحصول عليك.. ولقد فرغت من كلتا الدارين وهزت لهما كتفى مادمت جالسًا إلى جوار كلام الله فلا أفكر فى جاه ولا رئاسة ولا سلطنة، وتكفينى دولة العشق منصبًا وجاهًا. إننا أعداء لأنفسنا والحبيب هو الذى يجذبنا ونحن غرقى فى البحر الذى يجذبنا موجه وكل عاشق كالمتصور يقتل نفسه فدلينى على غير عاشق يقتل نفسه عمداً، وإن الأجل ليطلب الناس مائة مرة فى اليوم وعاشق الحق يقتل روحه دون أن يطلبها الأجل..

وقال لى أنا الظاهر والباطن والأول والآخر فلا تحسب أن الجمال والحسن والبهاء محبوبتك ولا تذكرنى فتلك ودائع حين أستردها

بمشيئتى تغدو حبيبتك جلداً على عظم ثم جثة بلا روح ثم رمة مدودة، فتراباً تذروه الرياح واعلم أيها المنسوب إلى العلم بوقوع الصحو لك تتبين حيرة السكرة وتكون الإفاقة على وقت الغمرة وبصحة الذكر ينكشف لك وبال الغفلة وبالسلامة والعافية يتميز لك وقت العلة.

بعد قليل سأفتح بابى وأخرج إلى نور دنياى الجديدة المعلقة بآخرتى من يمينها وشمالها ومن فوقها وتحتها ومن أمامها وورائها.. النور. النور. النور.. وسوف أملأ حياتى بالناس ورب الناس ولن أنسى يوماً أنك كنت صاحبة الفضل فى ذلك. ولقد غيبت نظرى فى نظره.. الله أكبر الله أكبر ولا اله إلا الله. محمد رسول الله وكل أنبيائه ورسله أحبائى فى النور.. وأفنيت عن كلٍّ فإنى حققت ما وجدت غيره وأمسيت فى الحال هانى وإن أهل البلاء لما اتصلوا بحادث الحق فيهم وجارى حكمه عليهم وتغربت أسرارهم وتاهت أرواحهم عمر الأبد فلا تأويها المواطن ولا تجنها الأماكن، تعد إلى مبتليها حنيناً وتئن بفناء النائى عنها أنيناً، قد شجاها فقدانها وذلها وجدانها، أسوفة عليه موجعة لديه، متشوقة فى الوجد إليه، أعقبها بها ظمأ ويزيد الظمأ فى أحشائها نماء فهى الكلفة بمعرفتها السخية بفقدها والحمد لله فإذا جئت إلىّ الآن يا مريم وطرقت على بابى وفتحت لك فلسوف أسألك صادقًا وكلى دهشة إذ أراك لأول مرة فى عمرى:

ـ من أنت؟

واعلمى يا مريم أنى مسيحك وكاهنك ومخلصك ومحبك الأبدى، وليسمو بك حديث غفرانى إلى الملكوت الأعلى ولتنفذ كلماتى فى قلبك لتذيب كيانك وتغتسلى وتتطهرى بدموعك الحارة فلقد اخترت النصيب الصالح ولن ينزع منك أبداً.. ولتعطرى يدى بالطيب ولتمسحى بهما شعرك الحقيقى وكفك الحبيب ●

(٤٠)

مريم عبد الشهيد

١٩٩٤

*

« يا سيد . . إن كنت أنت حملته فقل لى أين وضعته وأنا آخذه »

تمت

سعيد سالم

---

* انجيل يوحنا

المؤلف

- **سعيد سالم.**
- مواليد ١٩٤٣ / إسكندرية / ت: منزل ٥٤٦٢٨٦٩.
- ماجستير هندسة كيمائية وحاصل على جائزة الدولة التشجيعية في القصة.
- عضو اتحاد كتاب العرب.
- عضو لجنة النصوص الدرامية بإذاعة وتليفزيون الإسكندرية.
- **صدر للمؤلف:**

١ - جلامبو	رواية ١٩٧٦		إسكندرية
٢ - بوابة مورو	رواية ١٩٧٧		إسكندرية
٣ - عمالقة أكتوبر	رواية ١٩٧٧		القاهرة - هيئة الكتاب
٤ - آلهة من طين	رواية طبعة أولى ١٩٨٥		القاهرة - هيئة الكتاب
آلهة من طين	رواية طبعة ثانية ١٩٨٦		دمشق - دار الجليل
٥ - عاليها أسفلها	رواية طبعة أولى ١٩٨٥		دمشق - وزارة الثقافة
عاليها واطيها	رواية طبعة ثانية ١٩٩٢		دار ومطابع المستقبل - مصر
عاليها أسفلها	رواية طبعة ثالثة ١٩٩٥		القاهرة - هيئة الكتاب
٦ - قبلة الملكة	مجموعة قصص	١٩٨٧	دمشق - اتحاد الكتاب العرب
٧ - الشرخ	رواية ١٩٨٨		دمشق - دار طلاس
٨ - الأزمنة	رواية ١٩٩٢		القاهرة - دار الهلال
٩ - الموظفون	مجموعة قصص	١٩٩٢	دمشق - اتحاد الكتاب العرب
١٠ - الجائزة	مجموعة قصص	١٩٩٤	قايتباى للطباعة والنشر - مصر
١١ - الفلوس	رواية ١٩٩٥		دار ومطابع المستقبل - مصر
١٢ - رجل مختلف	مجموعة قصص	١٩٩٦	القاهرة - هيئة الكتاب
١٣ - الكيلو ١٠١	رواية	١٩٩٨	هيئة الكتاب - أدب حرب

- **تحت الإصدار:**

١ - حالة مستعصية	رواية	دار الهلال - القاهرة
٢ - الممنوع والمسموح	مجموعة قصص	مختارات فصول - القاهرة
٣ - هوى الخمسين	مجموعة قصص	مختارات فصول - القاهرة
٤ - قانون الحب	مجموعة قصص	مطبوعات نادى القصة
٥ - رحيق الروح	مجموعة قصص	

صدر من هذه السلسلة :

وما زال الدم يبوح	شــعــر	محمد فهمى سند
تيك اواى	قــصــص	حجاج حسن أدّول
الحرب الثالثة	روايــة	عبد المنعم السلاب
أمواج في بحر الحروف	شــعــر	فوزى خضر
بكائية للوطن والغربة	قــصــص	رأفت سليم
فنون الواو - الموال - الموشح	دراسات نقدية	عبد الستار سليم
الزجاج المكسور	قــصــص	د. غبريال وهبة
شقة الهوى والهوان	روايــة	د. إيهاب سلام
إسكندرية المهاجر	شــعــر	أحمد فضل شبلول
تغريبة الخواص	روايــة	عبد الحميد السداوى
ظل باب	قصص قصيرة	أحمد محمد حميدة
الخيول الشاردة	روايــة	بهى الدين عوض
طوفان النار	قصص قصيرة	محمد حافظ صالح
أيام زمان .. أين أنت ؟!	قصص قصيرة	هشام قاسم
على المواجع	شــعــر	على السويدى
حبيبتى والخيل والضفيرة	شــعــر	محمد صلاح الدين السعيد السقا
لو أنك يا حب تجىء	شــعــر	ناجى عبد اللطيف
انشطار التاج	مسرحية	محمد أحمد حمد
احضنوا الشمس، المولود .. المفقود	مسرحيتان	محمد كمال محمد
ابن عروس ، الفلاح الفصيح	مسرحيتان	محمد نصر يس
مختارات	شــعــر	جليلة رضا
لسه الأغانى ممكنة	شــعــر	كوثر مصطفى
الأمل وأحلام النورس	شــعــر	يس الفيل
قراقوش والأراجوز والحرفوش	مسرحية	السيد حافظ
الأمل الخالد	مسرحية	د. شوقى سعد
قطار الساعة ١٢	قصص قصيرة	السيد الشوربجى
تل المعافرة	رواية وقصص	محمد شاكر الملط
وداع لم يتم	قصص قصيرة	محمد صفوت
كف مريم	روايــة	سعيد سالم
عبور الميدان ظهراً	روايــة	محمد سليمان